جدلية العلاقة بين الإيمان والعقل عند جريجوري النزينزي

The dialectic of the relationship between faith and reason for Gregory of Nazianzus

د/ محمد أبوالمجد محمد قناوي

مدرس فلسفه العصور الوسطي –كلية الآداب –جامعه جنوب الوادي

ملخص البحث باللغة العربية:

يهدف هذا البحث إلى معالجة موضوع مهم من موضوعات الفكر الفلسفي بصفة عامة والفكر الفلسفي المسيحي في العصر الوسيط بصفة خاصة، ألا وهو "جدلية العلاقة بين الإيمان والعقل عند جريجوري النزينزي". ويمثل القديس جريجوري Gregory (٣٢٩ – ٣٩٠م) أحد أولئك الذين قدموا مساهمة جادة في موضوع التوفيق بين الإيمان والعقل. ورغم أهمية دوره مع بقية الآباء الكبادوكيين، باسيل القيصري Basil of Caesarea (٣٣٠-٣٧٩م) وجريجوري النيصي Gregory of Nyssa (٣٣٥- ٣٩٤م)، إلا أنه لم ينل القدر الكافي من الاهتمام والدراسة، فقد تميز بأسلوب بليغ وكان على دراية بالمذاهب الفلسفية الكبرى، مثل الأفلاطونية والأرسطية والأفلوطينية المحدثة والرواقية والكلبية وغيرها. وقد قدم رؤية حملت طابع الأهمية ساهمت في استجلاء الفارق بين مجالي الإيمان والعقل، مستخدمًا فيها مصطلحات ورؤي فلسفية؛ لشرح وتوضيح المفاهيم الإيمانية. كما ساهم في إظهار الفارق بين الفلسفة الحقيقية والفلسفة الزائفة في طريق المعرفة، وقدم رؤية في معرفة الذات الإنسانية تعتمد على الطهارة والتنقية، ومن ثم الاستنارة للحصول على المعرفة الإلهية الحقة. ورغم تأكيده على أن مجال الإيمان هو الأحق والأجدر بمعرفة الله، إلا أنه لم ينف دور العقل في الوقت نفسه.

كلمات مفتاحية: (جريجوري النزينزي، الإيمان والعقل، اللاهوتي، التنقية، الاستنارة).

Abstract:

This research aims to address an important topic of philosophical thought in general and Christian philosophical thought in the Middle Ages in particular, which is "the dialectic of the relationship between faith and reason according to Gregory of Nazianzus. Saint Gregory is one of those who made a serious contribution to the topic of reconciling faith and reason. Despite the importance of his role with the rest of the Cappadocian Fathers Basil and Gregory of Nyssa, he did not receive sufficient attention and study. He was distinguished by an eloquent style and was familiar with major philosophical doctrines, such as Platonic, Aristotelian, Neoplatonic, Stoic, Cynic and others. He presented an important vision that contributed to clarifying the difference between the fields of faith and reason, using terms and philosophical visions. To explain and clarify the concepts of faith. He also contributed to showing the difference between true philosophy and pseudo-philosophy in knowledge, and presented a vision of human self-knowledge that depends on purity, purification, and then enlightenment to obtain true divine knowledge. Despite his assertion that the field of faith is the most deserving and most worthy of knowing God, he did not deny the role of reason at the same time.

Keywords: (Gregory of Nazianzus, faith and reason, theologian, purification, illumination)

مقدمة:

لا تزال المناقشات الخاصة بمشكلة العلاقة بين الإيمان والعقل أو الدين والفلسفة، موضع النقاش الرئيس والمحوري في فلسفة العصور الوسطى عامة، وهذا ليس بشيء مستحدث أو جديد في ذلك الاتجاه. لكن ما يُعد جديدًا هو إماطة اللثام عما جادت به قرائح المفكرين واللاهوتيين أصحاب المساهمات المهمة في ذلك الموضوع، ولم ينالوا نصيبًا كافيًا من البحث والدراسة. وهذا ما يتجلى بوضوح في الشخصية التي نحن بصددها، وهو القديس جريجوري النزينزي (نحو ٣٢٩ – ٣٩٠م). الذي يُعد امتدادًا لطائفة المتفلسفين الذين حاولوا إظهار قوة الحقيقة الدينية مقابل المعرفة العقلية، بل وتغليب الأولى على الثانية بالحجة والبرهان، الذين لم يخلوا أحيانًا من الاستعانة بالمفاهيم الفلسفية لتوضيح وتبسيط الحقيقة الإيمانية نفسها. وهو يُعد امتدادًا للتيار السكندري، الذي رأى أن الفلسفة الحقيقية هي الفلسفة بحسب المسيح. ذلك التيار المتمثل سلفًا في أشخاص مثل كليمنت Clement (١٥٠– ٢١٥م) وأوريجن Origen (١٨٥– ٢٥٤م) الإسكندريين.

ويعد جريجوري مثال حي للاهوتيين المسيحيين الذين تفاعلوا بشكل رائع مع تأثيرات الفلسفة اليونانية، بل وإخضاعها في صورتها العقلية إلى مقتضيات العقيدة الدينية، ولم ينكروها في الوقت ذاته. وهذه نقطة مهمة تفيد بأن الإيمان المسيحي عند بعض ممثليه لم يعارض الفلسفة، بل جعلها داعمًا منطقيًا لبعض قضاياه، التي اقتضت الاستعانة بالعقل لفهمها وتوصيلها للغير لتعقل مضمونها. ومما عزز من أهمية دراسة أفكار جريجوري قوة أسلوبه وقدرته النسقية ونسقه الخطابي البليغ، الذي ساهم في إظهار المسيحية في صورة إيمانية ذات مسحة فلسفية لا تنافي العقل أو تجافيه. أيضًا من أوجه أهمية دراسته التعرف على العلاقة بين فكره وبين السابقين عليه من فلاسفة مدرسة الإسكندرية، ودوره المهم في توضيح واستجلاء العلاقة بين العقل والإيمان، وتوضيح دور ومكانة كل منهما في بلوغ المعرفة. كذلك تركيزه على العلاقة الكائنة بين الله والإنسان، لبلوغ المعرفة من خلال تطهير وتنقية الروح والجسد معًا. كما تحدث أيضًا عن مفهوم التطهير الأخلاقي والابتعاد عن الماديات والشهوات والملذات الدنيوية، وممارسة الطقوس الدينية التي تساعد على تطهير الإنسان مثل: الصوم، والصلاة، والسهر، والخدمة الدينية، والزهد وغير ذلك.

وبناء على ذلك طرحت الدراسة مجموعة تساؤلات مهمة، من أبرزها:

- هل كان جريجوري من مناهضي العقل المتمثل في ما جاءت به الفلسفة من أفكار؟ أم كان من تيار مؤيدي الاستفادة من الموروث اليوناني ولكن من منظور إيماني؟
- ما المعنى الحقيقي للفلسفة بالنسبة لجريجوري؟ وما معنى التفلسف؟ أهو التفلسف في إطاره النظري! أم التفلسف بصفته نظامًا متكاملاً يمارس النظر والعمل في آن واحد؟
- ثم ما الطريق المؤدي إلى معرفة الله؟ وهل هو طريق الفلسفة أم طريق الإيمان؟ أم أجتهد في إيجاد طريقاً ثالث؟
- كيف يُصبح الفرد مؤهلاً لتلقي المعرفة الإلهية؟ وهل ذلك في متناول الفيلسوف أم اللاهوتي؟

منهج الدراسة:

يستخدم الباحث المنهج السردي التاريخي في العرض والتحليلي المقارن في المعالجة، وكذلك إظهار الصلات والروابط بين ما ذكره وبين ما جاء من أفكار الفلاسفة والمفكرين المسيحيين السابقين عليه.

وقد قسمت البحث إلى مجموعة من العناصر، أحاول من خلالها الإجابة على تساؤلات الدراسة، وهى كالتالي:

مقدمة

أولا: حياته وكتاباته.

ثانيًا: المعرفة بين الإيمان والعقل.

ثالثًا: معرفة الله من اللاهوت إلى الاستنارة.

أ- معرفة الذات ومعرفة المسيح عند اللاهوتي.

ب- سُبل تطهير اللاهوتي.

ج- الاستنارة: معرفة الرب المطلق.

خاتمة

أولا: حياته وكتاباته:

عاش جريجوري في كنف العديد من الأفكار المتثاقفة. فقد ولد بعد سنوات قليلة من مجمع نيقية الأول Council of Nicaea (٣٢٥م)، وتوفي بعد سنوات قليلة من مجمع القسطنطينية الأول Council of Constantine (٣٨١م). ربما كانت هذه الفترة الأكثر تكوينًا للعقيدة المسيحية بعد كتابة العهد الجديد(*). حيث الوقت الذي خرج فيه المسيحيون من الاضطهاد الذي تم شنه في بداية القرن الرابع، لإضفاء الشرعية على دينهم وتأييده في الإمبراطورية. كان أيضًا وقتًا للخلافات العقائدية الشرسة بين المسيحيين أنفسهم، بمن فيهم الأباطرة، حول أهم مسائل الإيمان. لم يشهد جريجوري نقطة التحول هذه في التاريخ المسيحي فحسب، ولكن بفضل مواهبه الفكرية ساهم بشكل حاسم في تحديد الطريقة التي يفكر بها المسيحيون في الأجيال المتعاقبة، في الموضوعات المتعلقة بتلك الصراعات مثل الأسرار الإلهية. لقد جاء من مقاطعة كبادوكيا Cappadocia التي أصبحت الآن في وسط تركيا. وشهدت هذه الأرض الوعرة ظهور مثقفين آخرين بارزين كان لهما مع جريجوري أهمية خاصة للمسيحية الأرثوذكسية. وهما باسل القيصري(*)، الذي ادعى جريجوري أنه أفضل صديق له، وشقيق باسيل الأصغر جريجوري

* -لم يكتب العهد الجديد بصورته الحالية ولا بترتيبه أو إصحاحاته، بل كانت شذرات وأقوال في طور بدايات التدوين الذي لم يقطع في تحديد اللغة التي كتب بها.

* - باسل القيصري (٣٣٠-٣٧٩م) أحد الآباء اليونانيين الأوائل. لُقب باسم باسيل الكبير، وأصبح أسقفًا لمكان ولادته، قيصرية مازاكا في كابادوكيا Caesarea Mazaca in Cappadocia، مع سلطة على معظم آسيا الصغرى. اكتسب

النيصي(*). وقد لقب العلماء المعاصرون هؤلاء الثلاثة بـ "الآباء الكبادوكيون" Cappadocian Fathers.(١) وقد ولد هؤلاء الآباء الكبادوكيون – باسل الكبير، وأخوه جريجوري النيصي، وصديقهم جريجوري النزينزي – في وقت متقارب. حيث كان جريجوري النزينزي الأكبر بين الثلاثة، وجريجوري النيصي الأصغر.(٢)

أما عن جريجوري النزينزي فقد ولد حوالي (٣٢٩- ٣٣٠م)، وقد كان طفلًا أوسطًا لثلاثة أطفال. لعبت أخته الكبرى "جورجونيا Gorgonia" وشقيقه الأصغر "قيصريوس Caesarius" دورًا أساسيًا في تطور قريحته وأريحته، كما فعل والداه جريجوري الأكبر وأمه المحبوبة نونا. يعكس جريجوري أفضل ما يمكن أن تقدمه العصور القديمة المتأخرة بالنسبة لرجل متعلم. فقد قادته دراسته إلى ينابيع التعليم اليوناني الروماني: قيصرية، وقيصرية ماريتيما (فلسطين)، والإسكندرية، وأثينا. لقد تطور في هذه المدن ليصبح خطيبًا، ولم تخل تعاليمه الفكرية المتمعنة من الجدل.(٣) آمنت عائلته بأهمية التعاليم الكلاسيكية، ولذلك تم إرساله هو وشقيقه، قيصريوس، إلى أكبر مدن العالم الهلنستي لتدريبهم على العلوم الدنيوية. وقد درس "أفلاطون Plato (٤٢٧ – ٣٤٧ ق.م) وأرسطو Aristotle (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) جزءًا من تدريبه على الخطابة. كما أنه قد تأثر بالأفكار الأفلاطونية المحدثة، بما في ذلك ازدواجية الجسد والعقل التي حولها المسيحيون إلى جسد وروح، والزهد الذي ترافق مع هذا الاعتقاد. مثلما أكد عالم اللاهوت البريطاني جون

سمعة بشجاعة لا تتزعزع، وقوة فكرية عظيمة، ورغبة في التوسط في النزاعات – على الرغم من أنه عارض الآريوسية باستمرار. يُذكر أنه وضع قاعدة للحياة الرهبانية وازن فيها بين الحياة التأملية والمسئولية عن الخدمة. لا تزال عظاته من الليتورجيا مستخدمة في الطقس البيزنطي.

See: John F. Nash: Christianity: the One, the Many: What Christianity Might Have Been and Could Still Become Volume 1, Xlibris Corporation, 2007, U.S.A, p. 132.

* – ولد جريجوري النيصي. ٣٣٥ م في قيصرية في كابادوكيا، لعائلة مسيحية ثرية. كان والداه الخطيب الشهير القديس باسيليوس والقديسة إميليا، وكان أخوه الأكبر باسل الكبير. كان لوالده وأخته القديسة ماكرينا وباسيل تأثير كبير في تكوينه الأخلاقي والفكري. خدم جريجوري لبعض الوقت كمحاضر في مسقط رأسه، ثم أصبح مدرسًا للبلاغة. شارك مع جريجوري النزينزي في مجمع القسطنطينية ، حيث أطلق عليه "عمود الأرثوذكسية". و توفي عام ٣٩٤م.

See: George Thomas Kurian, Mark A. Lamport: Encyclopedia of Christian Education, Rowman & Littlefield, New York, 2015, p. 563.

1 - Andrew Hofer, O.P: Christ in the Life and Teaching of Gregory of Nazianzus, OUP Oxford , U.S.A, 2013,p.1.

2 - Jostein Børtnes, Tomas Hägg: Gregory of Nazianzus Images and Reflections, Museum Tusculanum Press, Denmark, 2006, p.9.

3 - Jennifer Barry: Bishops in Flight: Exile and Displacement in Late Antiquity, University of California Press, U.S.A, 2019, p.57.

أنتوني ماكجوكين (John Anthony McGuckin ١٩٥٢م): "أن الجمع بين أسلوب الحياة الزاهد كمتلازمة أساسية للسعي الفلسفي مبدأً تشاركته الكنيسة الأولى مع الأفلاطونيين الجدد". وتم التعبير عن اندماج جريجوري مع هذه التقاليد في قصائده المتعددة بوضوح، حين أشار إلى حياة الزاهد على أنها" الحياة الفلسفية".[٤] ثم سافر إلى قيصرية، والتي كانت آنذاك عاصمة كبادوكيا؛ لتحصيل مستوى تعليمه التالي. وانتقل إلى فلسطين سعياً وراء معرفة أعمق بالبلاغة والفلسفة، وهي موقع مدرسة شهيرة كان أوريجن يعلّم فيها ذات يوم. ثم سافر من فلسطين إلى الإسكندرية حيث واجه تقاليد فكرية كلاسيكية. وقد "شكلت دراساته في فلسطين والإسكندرية بلا شك ميله إلى الأفلاطونية واللاهوت والتفسير النصّي(*) [٥] ثم استقر أخيرًا في أثينا وأكاديمية أفلاطون عام ٣٤٨م. ومكث فيها عشر سنوات أتقن فيها فن الخطابة وأسس شكلًا من البحث المسيحي تميز بالزهد والنشاط الفكري في آن واحد.[٦] وأثناء دراسته في أثينا، التقى باسيل أسقف قيصريه المستقبلي. ووفقًا لجريجوري، أصبح الاثنان صديقين مقربين واستمرا في التأثير على بعضهما البعض طوال حياتهما المهنية الأدبية والكنسية. وكان شقيق باسيل، جريجوري النيصي، هو الذي أكمل في النهاية ثالوثهم كآباء كبادوكيين. حيث دافعوا بشراسة عن مؤمني آسيا الصغرى ضد آلام البدعة. رأسًا في عاصمة الإمبراطورية الرومانية، القسطنطينية آنذاك.[٧]

ونتيجة إقامته الطويلة في أثينا (٣٤٨–٣٥٨م) حصل على تعليم ممتاز، حيث درس مع باسيل تحت إشراف الخطيب المسيحي الأرميني بروهارزيوس Prohaeresius (٢٧٦– ٣٦٨م) ثم عاد إلى كبادوكيا ليعيش حياة التقشف في ممتلكات عائلته. ولكن ظلت "الحياة الفلسفية" حبه الأول.[٨] وقد كان رحيل باسيل غير المتوقع عن أثينا أحد المآسي العظيمة في حياته. وبعد بضع سنوات حزينة بمفرده زار جريجوري باسيل بشكل متقطع في ضيعة عائلته في بونتوس، وجمع معه مقتطفات من أعمال أوريجن في مجلد بعنوان فيلوكاليا Philokalia. لكنه لم يستطع تحمّل الزهد الريفي لباسيل، مفضلاً بدلاً من ذلك كوخًا منعزلاً في ولاية والديه حيث يمكن أن يعيش حياة من التراجع الفكري. ثم رسّمه والده قسرًا في رأس

4 - Michelle Ballif ،Michael G. Moran: Classical Rhetorics and Rhetoricians: Critical Studies and Sources, first published, Greenwood Publishing Group, U.S.A, 2005, p. 177.

* - ذلك فضلا عن تأثره بالفيثاغوية المتأخرة ونهج فيلون في قراءة الشذرات المقدسة.

5 - Michelle Ballif ،Michael G. Moran: Op. Cit, p. 176.

6 - George E. Demacopoulos: Five Models of Spiritual Direction in the Early Church, University of Notre Dame Pess, U.S.A, 2006, p. 65.

7 - Jennifer Barry: Op. Cit, p.57, 58.

8 - Norman Russell: The Doctrine of Deification in the Greek Patristic Tradition, Oxford university press, U.S.A, 2005 p. 213.

الكاهن في يوم عيد الميلاد ٣٦١م، ولم يستطع وتهرب دون أن يلقي خطبته الأولى التي كانت متوقعة بشدة، ولجأ إلى العزلة مرة أخرى مع صديقه باسيل. ثم عاد إلى المنزل بعد شهرين، عندما أذاع عدد من الزاهدين المؤيدين لنيقية أن جريجوري الأكبر (الوالد) قد وقع في البدعة من خلال التوقيع على اعتراف غير تقليدي، هدد كنيسته بالانشقاق. وقد تولى جريجوري مهمة أسقفية بإيعاز من باسيل، حيث انتهى به الأمر إلى تعيينه أسقفًا لساسيما عام ٣٧٢م، التي كانت مكانًا صعب المراس للغاية.(٩) وبعد وفاة والده عام ٣٧٤م، تولى إدارة الكرسي في نازينزوس لبعض الوقت. ثم تقاعد في عام ٣٧٥م في دير في سلوقية، إيزوريا، ولكن بعد أربع سنوات تمت دعوته لإعادة تنظيم مجتمع نيقية المتضائل في القسطنطينية، تلك المدينة التي تعيش فيها الآريوسية في ٣٨٠م.(١٠) وقد لعب أهم دور في حياته؛ ليصبح حارسًا متقدمًا لحزب نيقية في مدينة يسيطر عليها غير النيقيين. ونظرًا لأن جميع الكنائس في القسطنطينية كانت في حوزة غير النيقيين، أنشأ كنيسة في فيلا على ملكية ابن عمه "ثيودوسيا ديدي" أطلق عليها اسم "أناستاسيا" Anastasia؛ للدلالة على قيامة الإيمان في المدينة التي كانت تعاني الموت وسوء حالة الإيمان". وقد تمثلت مهمته الرئيسة في تبشير الناس بالإيمان النيقي ببساطة.(١١) والحقيقة أنه كان شغوفًا إلى حد كبير بالحياة التأملية الهادئة والملاذ الرهباني، ولكنه أُجبر طوال مسيرته على البعد عن هذا، وتم إقحامه في الخدمة الفعلية من خلال التعيينات القيادية المتتالية التي تطلبت عملًا شاقًا ومعارك متواصلة.(١٢) وقد تقاعد وتقدم في السن قبل الأوان وأصبح مريضًا وخائب الأمل للغاية، رغم أنه لم يزل في أوائل الخمسينيات من عمره. حينها عاد إلى كبادوكيا، حيث توفي عام ٣٨٩ أو ٣٩٠م.(١٣) والحقيقة أن جريجوري يعد شخصية مهمة في تاريخ اللاهوت والفكر المسيحي، وربما يكون أحد أعظم المبشرين في العصر السفسطائي الثاني خلال القرن الرابع الميلادي. وإن لم يساهم بنظرية جديدة في تاريخ البلاغة، إلا أن ممارساته الخطابية وسيرته أمثلة جديرة بالبحث، عبّرت عن الامتزاج الديناميكي بين المسيحي والعلماني في بداية الإمبراطورية البيزنطية.(١٤)

9 - John Behr: The Nicene Faith: Formation Of Christian Theology, Volume 2, St Vladimir's Seminary Press, New York, 2004, p.p 324, 325.

10 - Frank Northen Magill: Dictionary of World Biography, volume 1, "the ancient world", Taylor & Francis, U.S.A, 2003, p. 462.

11 - John Behr: Op. Cit, p. 325.

12 - James Francis LePree Ph.D., Ljudmila Djukic: The Byzantine Empire: A Historical Encyclopedia, volumes 1, ABC-CLIO, , U.S.A, 2019, P.185.

13 - Frank Northen Magill:Op. Cit, p. 462.

14 - Michelle Ballif ،Michael G. Moran: Op. Cit, p. 177.

أما عن كتاباته: فقد كان جريجوري النزينزي أكثر مؤلفي الشعر المسيحي المبكرإنتاجاً ، وقد أدرجت بعض أبياته ضمن الأبتهالات والترانيم والأناشيد الكنائسية. ويرجع ذلك لعلو جرسها اللفظي ورقة ودفء مضامنها الروحية. ولم يكن لاهوتيًا ملهمًا للكنيسة المسيحية الأولى فحسب، بل أحد أكثر الكتاب تعليماً وإنتاجًا في جيله. كان لعمله أيضًا تأثير كبير لاحقًا، وأصبح المؤلف المسيحي الأكثر تقليدًا في العصر البيزنطي. بجانب الخطب والخطابات، كتب حوالي ١٧٠٠٠ بيتًا شعريًا باللغة التقليدية حسب طريقة العد المستخدمة من قبل الشعراء اليونانيين القدامى والكلاسيكيين، والتي كانت أيضًا بمثابة مقياس لكتاب مسيحيين آخرين. هناك قصائد دوغماطيقية (عقدية)، وقصائد أخلاقية، "وقصائد عن السيرة الذاتية، بالإضافة إلى قصائد عن أشخاص آخرين مرثيات ومقالات." وقد أكسبته كمية ونوعية مؤلفاته الحق ليكون شاعرًا للمسيحية المبكرة، وقد قدم بعض الأسباب التي دفعته لتأليف الشعر، ومنها: نظام تربيته، حبه للكتابة، وميله نحو الإفراط مع إجتهاده في الإيجاز، ورغبته في إظهار الإيمان المسيحي في صورة بليغة يسهل إستيعابها على العوام.[١٥] وقد وفرت كتاباته كثير من المعلومات عن الحياة الدينية والاجتماعية للمسيحية في النصف الثاني من القرن الرابع.[١٦] وتميزت خطبه وخطاباته وقصائده بعمق الفكرة وأناقة اللفظ لدرجة أنه عُرف باسم اللاهوتي. وقد كتب مؤلفاته الأكثر أهمية خلال عامين من عمله أسقفًا للقسطنطينية.[١٧] وتنقسم أعماله إلى ثلاثة أقسام (الخطب والرسائل والشعر) على النحو التالي:

١-الخطب: وعددها ٤٥ خطبة، ألقى أكثرها ما بين عامي ٣٧٩ و ٣٨١ م في أهم مراحل حياته يوم أن كان أسقفًا في القسطنطينية. وقد تميزت بأسلوب بلاغي بياني جعلها مادة للدراسة في معاهد الخطابة والبلاغة.[١٨]

٢-الرسائل: كتب ٢٤٥ رسالة، وجّه معظمها إلى ذويه وأصدقائه.

15 - Christiane Zimmermann: Faith and Verse: Gregory of Nazianzus and Early Christian Village Poetry, in: Early Christianity in Asia Minor and Cyprus: From the Margins to the Mainstream, Stephen Mitchell, Philipp Pilhofer, BRILL, Netherlands, 2019, p. 126, 127.

16 - Frank Northen Magill: Op. Cit, p. 462.

17 - Coriden, James A.: The Holy Spirit and an Evolving Church, Orbis Books, , U.S.A, 2018, p.312.

١٨ - القديس جريجوري النزينزي: رسائل لاهوتية وفصلان من مسرحية المسيح المتألم، تعريب حنا الفاخوري، ط١، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ١١.

٣-الشعر: نظم الشعر فى أواخر حياته في خلوة أرينزة؛ ليبين أن الحضارة المسيحية ليست دون الحضارة الوثنية شأنًا، ولينافس الهراطقة الذين عملوا على نشر بعض آرائهم بالأسلوب الشعري. ومنها ثمان وثلاثون قصيدة عقائدية، وأربعون قصيدة أخلاقية، ومئتان وست قصائد تاريخية ضمنها سيرة حياته.[١٩]

ثانيًا: المعرفة بين الإيمان والعقل.

يشير جريجوري عادةً إلى هذا النوع من الممارسة المسيحية المنضبطة بالمصطلح التقليدي "فلسفة"[٢٠]. وفي حديثه عن وقته مع باسيل في أثينا، كتب أن "الفلسفة كانت هدفهم الرئيس"[٢١]، حين انسحبا من العالم ومارسا حياة المحبة الإلهية والفضيلة المسيحية والرجاء الأخروي. وبعد مغادرته أثينا والعودة إلى كبادوكيا، قال إنه "عقد العزم على ممارسة الفلسفة، والسعي وراء الحياة الرفيعة"، التي تضمنت تقديم مهاراته الخطابية الشهيرة لخدمة الرب، وتابع ذلك واصفًا الفلسفة المسيحية على أنها ليست ظاهرية فحسب، بل مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالإله؛ لتعيش الإنجيل بمعناه الكامل. بالنسبة لجريجوري، كما هو الحال بالنسبة للكثيرين في الفترة الهلنستية، لم تكن الفلسفة تمرينًا عقليًا بحتًا؛ بل طريقة حياة المرء بأكملها. فبالاعتماد على أفلاطون وأرسطو اعتبر الكتاب الهلنستيون من مختلف الأطياف أن الفلسفة تتعلق بما يمكن أن نطلق عليه مسمى الممارسة الفلسفية أو الخبرة الدينية؛ لذلك اعتبر الكتاب اليهود والمسيحيون الاسلوب الفلسفي أداة للتعبير عن أنظمة معتقداتهم وأساليب حياتهم في البيئة الهلنستية. ثم تأثر جريجوري بهذا النهج من كليمنت وأوريجن، وربما أيضًا يوسابيوس القيصري، جنبًا إلى جنب مع دراسته للنصوص المقدسة والإغريق القدماء. حيث يشير الخطابان الرابع والخامس لجريجوري إلى أنه كان على دراية بمعظم الفلاسفة اليونانيين من ما قبل سقراط إلى الأفلاطونيين المحدثين. ولكن رغم معرفته العميقة بالفلسفة اليونانية، فقد اهتم في المقام الأول بإظهار التناقض القائم بين الفلسفات الوثنية والمسيحية.[٢٢] حين ذكر أن الفلسفة الوثنية "تتلاعب بظلال الحقيقة تحت عباءة الفلسفة وقناعها"، في حين أن الفلسفة المسيحية، "على الرغم من بساطة مظهرها العام، إلا أنها سامية من الداخل وتقود إلى ملكوت الرب". وبعد أن انتقد المدارس الهلينستية المختلفة بشدة، خلص إلى أن المسيحي هو "عاشق

---

[١٩] - كيرلس سليم بسترس وآخرون: تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، ط١، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٥٢١.

20 - Christopher A. Beeley: Gregory of Nazianzus on the Trinity and the knowledge of God: in your light we shall see light, Oxford University Press, Inc, New York, 2008, p 72.

21 - George A. Kennedy: Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times, University of North Carolina Press, U.S.A, 2003, p. 163.

22 - Christopher A. Beeley: Op. Cit, p 72.

الحكمة الربانية الحقة عكس أولئك الذين يفتقرون إليها".[٢٣] أن الفلسفة الحقة عندهـ هي الـجامعة بين الإيمان و العمل والنظر والتطبيق. ولذلك نجده يربط معرفة الحقيقة بمجموعة من الممارسات، التي وإن كانت مستندة في ظاهرها على العقل والحكمة النظرية، إلا أنها لن تكتمل إلا إذا ارتبطت بالعمل القائم على العبادة والإيمان.

فبينما يتحدث أحيانًا عن الفلسفة على أنها تنطوي على أبعاد عملية وتأملية، أو ممارسة وتأمل، فإنه يركز بشكل أساسي على الانضباط العملي لإدارة حياة المرء في ضوء أعلى القيم الفردية. ويتم تعريف فلسفته دومًا من منظور الفهم المسيحي للرب وخلق الوجود، كما اتضح في إشارته إلى "التفلسف عن الإله"؛ ومع ذلك فإن الأمر يتعلق عادةً بممارسات السيطرة على الذات المطلوبة للاتحاد بالمُخلص، وبطريقة الحياة العملية التي تلهمها معرفة الرب نفسها.[٢٤] والحقيقة أنه لم يكن من مناهضي الفلسفة، ولكنه كان بمثابة امتداد سكندري في التعامل معها، فقد ورث من سابقيه كليمنت وأوريجن الإسكندريين، المفهوم الجديد للفلسفة من حيث كونها طلب الحكمة الروحية السامية، فالفلسفة في منطقها المسيحي هي عيش الإنجيل بوعي وإدراك. وقد اتضح ذلك حينما غادر أثينا وعاد إلى كبادوكيه، عازمًا على العمل بالفلسفة وطلب الحياة السامية مخضعًا مهارته البلاغية والخطابية لخدمية التعليم في حقل الكنيسة، مطوعًا إياها لطاعة المسيح، وقد كان هدفه الدائم تقديم الإيمان المسيحي في قالب ملائم للكرازة أو الوعظ. مما دعاه إلى تقديم الإيمان المسيحي في قالب هليني لأغراض تبشيرية. ولكن صياغة مضمون الإيمان الثابت في إطار معاصر تتطلب بصيرة ووعي بما يتناسب مع الحق الإلهي من تعبيرات وتصورات وأفكار، وهذا ما برع فيه الآباء السكندريون ومن بعدهم الكبادوك، وقد أشار عديد من العلماء إلى أن القديس جريجوري كان يستخدم صياغات ثقافية فلسفية في عظاته بهدف تقديم البشارة المسيحية لمجتمعه، وحث سامعيه على التحول إلى معرفة المسيح، محافظًا على السمة الرسولية لفكره اللاهوتي في الوقت نفسه، وكان ذلك هو الهدف الرئيس لخدمته ورعايته.[٢٥] وبناءً على ذلك لم يكن النزينزي "فيلسوفًا خالصاً" مثلما يعتقد كثير من الأكاديميين المحدثين. بل كان مقيداً بالسياج الإيماني الذي حرص عدم الجنوح عنها إلا أنه من طائفة الأشخاص الكُثر المثقفين بدرجة عالية في العصور القديمة المتأخرة، فقد ركز تعليمه إلى حد كبير على الاستخدام الفعال للغة والانغماس في التقليد العريق للأدب اليوناني لتعلم مبادئه الأخلاقية والثقافية وقدرته على الإقناع. فقد أتيحت له الفرصة لحضور محاضرات من قبل ممثلي

23 - Ibid: p 73.
24 - Ibid: p 72.
[٢٥] - مركز الأبحاث بمجلة مدرسة الإسكندرية: كتاب اللاهوتي ومعرفة الله في فكر القديس جريجوري اللاهوتي، ط١، ع ٥، ٦، مطبعة الدلتا، الإسكندرية، اكتوبر ٢٠١١م، ص ١٤.

"المدارس" الفلسفية العظيمة في العصور القديمة في الإسكندرية وأثينا وربما استفاد منها. وكان من المتوقع أن يكون الشخص المتعلم الليبرالي على دراية باستراتيجيات التفكير والمفاهيم المختلفة عن حقيقة العالم الأساسية التي تم تداولها، خلال ما يقرب من ألف عام في الثقافة الهلينية.(٢٦) وقد كان يرحب باستخدام مفردات المدارس اليونانية من الناحية اللغوية طالما تم وضعها في إطارها اللاهوتي الصحيح ضمن التقليد الرئيس للمسيحية. لقد كان متحدثًا بالفلسفة، وليس فيلسوفًا وجوديًا مثل جريجوري النيصي. ولتمسكهم بالتقليد قام هو وباسيليوس في حوالي ٣٥٨ م بجمع مقتطفات من كتابات أوريجن، منتجين مجموعة من النصوص تُظهر الانسجام بين الإيمان والعقل.(٢٧) ويظهر التأثير الفلسفي على فكر جريجوري بوضوح في تقليد أوريجن، وبصورة انتقائية علمية تعطي مكان الصدارة للوحي الكتابي والشعور بالتقاليد المسيحية الموروثة؛ فكلاهما مستمد من منظور ميتافيزيقي أفلاطوني التأثّر، ولكن يتحدا بطريقة مرئية وبشكل خاص، والاقتباسات الأرسطية المستخدمة لهذا التأثير على سبيل المثال في الخطب اللاهوتية الخمسة، إلى جانب التأثير الأفلاطوني المحدث وآثار محددة لممثلي الكلبية وميغارية والرواقية في تفكيره مثل التي يمكن تمييزها أيضًا في تفكير أوريجن. الذي يأتي مجموع تلك التأثيرات الفلسفية الأكبر من تعاليمه. وعلى الرغم من أن التدفق الميتافيزيقي لعقل أوريجن التأملي أوسع وأكبر من عقل جريجوري، فإن القدرة على التوليف والربط والتمييز والجمع بين مجموعة متنوعة من الأفكار والأطروحات لا تقل وضوحًا في جريجوري عن أوريجن.(٢٨)

وتتجلى قدرة جريجوري على الاقتباس من المذاهب الفلسفية – مثل أوريجن Origen ومعظم المفكرين المسيحيين الآخرين من قبله– : في قدرته على استخدام الديالكتيك السقراطي والجدل السفسطائي بعد تهذيبه في المناقشات، والتحدث عن العلاقة بين حقيقة الرب المتعالية وبين خلق العالم من حيث الأشكال الأبدية المعقولة في عقل الله، مدركًا للتكهنات الرواقية Stoic speculations حول النظام وأصل العالم، ومعجبًا حتى بالكلبيين the Cynics بسبب تحررهم الجذري من الارتباطات المادية، ورغم ذلك لم يلتزم بتعاليم أي من هذه المدارس باعتبارها الوسيلة المهيمنة على فكره.(٢٩)

26 - Brian E. Daley, S.J: Gregory of Nazianzus The Early Church Fathers, First published, Routledge, New York, 2006, p 34.

27 - Kilian McDonnell: The Other Hand of God: The Holy Spirit as the Universal Touch and Goal, Liturgical Press,U.S.A, 2003, p. 141.

28 - John A. McGuckin: St. Gregory of Nazianzus: an intellectual biography, St Vladimir Seminary Press, New York, 2001, p. 57.

29 - Brian E. Daley S.J: Op. Cit, p 34.

ولم تكن انتقائيته الفلسفية شيئًا غريبًا بين المثقفين اليونانيين في القرن الرابع.[٣٠] فالقارئ لكتاباته وبالأخص عظتيه الرابعة والخامسة، سيلاحظ مدى إدراكه ووعيه بالمنهج والأفكار الأفلاطونية والأرسطية وصولا إلى الأفلاطونية المحدثة، وهو ما يظهر في حديثه عن الطهارة، حينما اتخذ العبارة الأفلاطونية المعبرة التي تقول: "ممنوع على غير الطاهر أن يقترب ممن هو طاهر "مطبقا إياها على العلاقة التي تحكم المسيحي بالرب. وقد وضع مقاربات بين الفلسفة المسيحية الحياتية والفلسفة اليونانية النظرية (الآرفية والفيثاغورية) ، موضحًا أن الأخيرة لم تصل للحق، بينما الأولى قد تبدو بسيطة ولكنها من الداخل سامية وتقود إلى الرب، فالمسيحي هو "محب الحكمة، والفيلسوف الحقيقي بحق، على النقيض ممن تنقصهم تلك الحكمة.[٣١] وإن دل ذلك على شيء إنما يدل على أن المعرفة ليست شيئا سهل المنال، بل هي رحلة شاقة متعددة الدرجات؛ فليست المعرفة العقلية وحدها تكفي لذلك، بل ضرورة أن تحدث معها الطهارة بشقيها الجسدي والروحي، وهو ما يفعله الإيمان.

وقد كان جريجوري نفسه مدركًا لهذا التفاعل بين الجوانب التأملية والوجودية للدراسة العقلانية الفلسفية. وقد أوضح هذه النقطة في خطابه الأول ضد جوليان : حينما قسم الفلسفة إلى جانبين: التأمل والممارسة. واحد هو أعلى، ولكن من الصعب بلوغه إلا من خلال ضمانات الخبرة، والآخر أقل منزلة ولكنه أكثر فائدة. يُنظر إلى كل منهما على أنه ذو قيمة بسبب الآخر؛ لأننا نجعل التأمل رفيقنا في الطريق إلى الحياة التالية ونمارس أساليبنا للوصول إلى التأمل، بعد كل شيء، من المستحيل المشاركة في الحكمة دون التصرف بعقلانية. من ناحية أخرى يفسر هذا الإحساس بالآثار العملية للتأمل الفلسفي القيمة العالية التي يضعها جريجوري في خطبه حول التكهن بعلاقة الخالق المتعالي الذي لا يوصف بعالم الزمان والمكان المحدود. في الخطب اللاهوتية الخمس على سبيل المثال تحدث عدة مرات عن أهمية وتحدي "التفلسف عن المسيح"– أي أهمية الحديث عن الرب بأسلوب فلسفي وتجنب الأجتراء على لاهوتيته– : إنه ليس شيئًا يجب أن يقوم به غير المدربين على الفضيلة أو أولئك الذين لديهم اهتمام أكاديمي فحسب.[٣٢] وهو يتحدث معترفًا أنه ينتمي إلى طائفة الفلاسفة الذين يمارسون الحكمة بهذا المعنى فيقول:" ونحن لنا حق الكلام والتعليم باللغة اليونانية. وإني أهيب بكل من هو معجب ومسرور بقيمة الكلام، أن يكون في صف هذه الفئة المختارة المحبة للكلمة، التي لا أنكر أنا أني إليها منتمٍ وبها متعلق. وقوة الكلمة هي تلك القوة التي أحببتها وأحبها من كل قلبي، أعني الأقوال الإلهية أو اللاهوتية

---

30 - Ibid: p 35.

٣١ - مركز الأبحاث بمجلة مدرسة الإسكندرية: مرجع سابق، ص ١٥.

32 - Brian E. Daley, S.J: Op. Cit , p 36.

والرجاء الوطيد والآمال الثابتة بتحقق الموجودات".[٣٣] ولذلك تبقى الفلسفة في فكر القديس جريجوري هي التفلسف الإلهي؛ فهي ليست قاصرة على شريحة معينة ولكنها متاحة للجميع من أي خلفية اجتماعية أو ثقافية، ممن تتسم حياتهم بفضائل ضبط النفس والصدق والعطاء والسهر والصوم والبساطة والاحتمال والصلاة مع الوعي الكامل بالفداء الإلهي الذي أتمه المسيح.[٣٤]

لقد جمع كأسقف ما بين التأمل وليد الوحدة والخدمية وليدة العمل الكنسي العام"، مؤكدا وجوب الحياة بتوازن واعتدال بين سمو التأمل وفاعلية الخدمة. وقد كان التوازن الروحي في حياته، فضلا عن علمه الغزير وثقافته المتسعة سببًا رئيسًا في تبوئه مكانة عليا في كلا المجالين الرهباني والرعوي.[٣٥] ولذلك تترجم عبارة "تفلسف عن الرب" على أنها "لعمل اللاهوت"؛ لأن هذا هو ما قصده جريجوري أساسًا هنا. فلم يكن استخدام مصطلح علم اللاهوت لتحديد "دراسة الله" كنظام متميز موجود في أيامه، ولم يصبح كذلك حتى أواخر العصور الوسطى. لكن ترجمة "التفلسف عن الله" إلى "عمل لاهوت" أو "لاهوت" لن تكون مجرد مفارقة تاريخية، ولكنها ستوضح بعض الفروق الدقيقة التي قصدها. تلك "الفلسفة" التي تشير إلى تبني نظام متكامل وليس إلى المفاهيم المستحدثة عن الفلسفة والتي تنظر إليها كنظام أكاديمي فحسب.[٣٦]

لم يكن الأمر مجرد تكهنات مجردة في فراغ (أو برج عاجي)، أكثر من كونه مسألة ما يتم نسبتها في كثير من الأحيان للفلسفة، من أنها حكمة تمارس في فراغ أجوف. كانت "الفلسفة" بالنسبة إليه نظامًا صارمًا للذات بأكملها من أجل التأمل ومعرفة ما هو حقيقي حقًا – في هذه الحالة وهو سر الله. وبالتالي، فإن كونك "فيلسوفًا لاهوتياً" لا يعني فقط أن تكون باحثًا أو معلمًا للقضايا المتعلقة بالألوهية؛ بل أن تكون محبًا للحكمة الأسمى والأكثر صدقًا، وهي معرفة القدوس.[٣٧]

وهنا نجده يستخدم كلمة فلسفة بمعاني مختلفة: فهي تشير أحيانًا إلى المعلمين والمدارس الفلسفية القديمة، وأحيانًا إلى الفلسفة المسيحية، التي تغرس الحق الإلهي وتعلم مبادئ الحياة الصالحة والمقدسة، وأحيانًا أخرى إلى ممارسة هذه المبادئ، إما فيما يتعلق ببعض الفضائل الخاصة، مثل فضيلة الصبر، أو

---

٣٣ - مختارات من القديس جريجوري اللاهوتي النزينزي: تعريب الأسقف استفانوس حداد، الخطاب الأول ضد يوليانوس، منشورات النور، بيروت ١٩٩٤م، ص ٧١.

٣٤ - مركز الأبحاث بمجلة مدرسة الإسكندرية: مرجع سابق، ص ١٥.

٣٥ - نفس المرجع: نفس الصفحة.

٣٦ - مركز الأبحاث بمجلة مدرسة الإسكندرية:: ص ١٥.

37 - Gregory of Nazianzus Five Theological Orations: Translated by Stephen Reynolds, Estate of Stephen Reynolds, United Kingdom, 2011, p. 3.

نظام متكامل لحياة الأفراد المسيحيين، وأكثر من ذلك؛ وتنطوي – بشكل أكثر دقة واتساعًا وشمولية– لتشمل ممارسة المبادئ المتصلة بنظام الحياة الرهبانية أو النسكية.[٣٨] وبالنظر إلى ما قدمه جريجوري نلحظ سيطرة اتجاهين فلسفيين على تفكيره: الاتجاه الأفلاطوني الذي يتبني التأمل العقلي منهجًا للمعرفة، والاتجاه الكلبي، الذي يتبنى وجهة النظر الأخلاقية. ونسعى لتوضيح ذلك التأثير في النقاط الآتية:

أما عن الأثر الأفلاطوني فيتضح عندما نرى ما تعنيه الفلسفة عنده: من حيث كونها ممارسة متأصلة تستهدف السيطرة على الذات والقدرة على العيش بسلام حتى في أصعب ظروف الحياة؛ لأن المرء قد تعلم أن يبحث عما هو مهم في النهاية، وهو ما يدركه المسيحي، أي الاتحاد مع الله. لذلك يكتب إلى صديق عائلته، فيلاجريوس Philagrius في نبرة تعاطف محذراً إياه من تجدير روحه وحزنه من ابتلاء المرض وعليه أن يبتسم بنفس راضية بما قدّره الرب وذلك في قوله : يجب أن تجد في ضعفك مكانًا للتفلسف وتنقية عقلك الآن أكثر من أي وقت مضى، وأن تظهر نفسك أقوى من الأشياء التي تجعلك تحت السيطرة، واعتبر هذا المرض تدريبًا مفيدًا – أي النظر إلى الجسد و الأشياء الجسدية، وعلى كل ما هو عابر ومزعج ومميت، وبالتالي تصبح مستعداً للعيش في رحاب الطاعات وليس من أجل هذا العالم الحالي ولكن للعالم الآتي مما يجعل هذه الحياة هنا ما يسميه أفلاطون "استعدادًا لـ الموت " وفقدان الروح إما جسدها أو سجنها.[٣٩] سجنها.[٣٩] وهنا نلحظ تأثيرًا أفلاطونيًا واضحًا على فكر جريجوري حينما يتكلم عن ضرورة تغليب الجانب الروحي الفوقاني علي الجانب الجسدي الترابي، فنجده يقول:" نحن لا نقمع اجسادنا ونجبرها على الطاعة والإيمان بل نجعلها قادرة على اقتلاع الشرور التي حاقت بأنفسنا من فرط حبنا للشهوات وتركنا العشق الأسمى وهو النعمة التي لا يتم خلاصنا إلا بالتفاني في الطاعة والإمتثال لها؟[٤٠] وقد استعان أيضًا بأفكار أفلاطون وأفلوطين Plotinus (٢٠٥ – ٢٧٠ م) من أن الحياة تأمل في الموت، وتأمل الجمال، واستنارة النفس بالشمس الإلهية، وطبيعة الشر، والتطهر، والرغبة في الصعود إلى الملكوت الرباني، والسعي المتواصل إلى الاتحاد به. ورغم مراعاة ومتابعة جريجوري لهذه الأفكار إلا أن ذلك أتى من منظور مسيحي.[٤١]

38 - Select Orations of Saint Gregory Nazianzen Sometime Archbishop of Constantinople: Translated by Charles Gordon Browne, M.A., James Edward Swallow, M.A., Christian Literature Publishing Co., New York, 1893, p. 428.

39 - Brian E. Daley, S.J: Op. Cit, p 37.

٤٠ – القديس جريجوري النزينزي: الخطب اللاهوتية ٢٧– ٣١، نقلها عن اليونانية إلى العربية الأب حنا الفاخوري، ط١، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ١٩٧٣م، الخطاب ٢٧ الخطاب اللاهوتي الأول "رد تمهيدي على أتباع أفنوميس"، فقرة ٧، ص ٣٣.

٤١ - كيرلس سليم بسترس وآخرون: مرجع سابق، ص ٥٢٣.

وقد تأثر أيضًا بما عرضه أفلاطون من أفكار عن عدم قدرة الإنسان على معرفة الخالق، بل واستحالة ذلك الأمر. وذلك بعد محاولات جريجوري المتكررة حيث يقول:" فلا بد والحالة هذه من العودة إلى المسيرة على النحو التالي: من العسير إدراك ذات الرب أو تفهّم سر وجوده على نحو عقلاني خالص كما فعل فلاسفة اليونان بل يجب الإنتظار لنعمة لحظة الحلول والوصال التي تستقر فيها الكلمة فتكشف الحجب والأسرار في قلوب المخلصين. وأعلم أن العقول المحدودة عاجزة عن استيعاب المطلق والأذن التي نسمع بها لن تفلح في الإصغاء للإشراقات الملكوتية والترانيم الكونية والتسابيح الروحية ومن ثم ينبغي علينا أن نجتهد في تقويم عقولنا وتصفية سرائرنا، فليس في مقدور الأرواح التي لم تتخلص من الأهواء والمطامع الدنيوية أن تبصر المسيح وتغمر أفئدتها الأنوار العلوية المقدسة.[٤٢] هنا يؤكد أن معرفة الله أمر يستحيل إدراكه بالعقل، ولا يمكن وصفه بالكلام، وإن كان هذا الأمر مستحيل على الأشخاص الماديين المتعلقين بالشهوات والملذات الدنيوية، فإنه صعب للغاية حتى على المؤمنين أنفسهم. وهو أمر متروك لرتبة كل فرد ودرجة قربه من الله.

وهناك منظور أخر سيطر على الرؤية الجريجورية، وقد نستغربه – لأن التأثير الأكبر على جريجوري كان لأفلاطون – إلا أنه سيطر على مساحة كبيرة من فكره، حين يحاول تعريف الفلسفة المسيحية باعتبارها امتدادًا للمذاهب الكلبية. بهذه الطريقة، تقتصر وظيفة الفلسفة المسيحية على الأخلاق، لكون الفلسفة الكلبية فلسفة أخلاقية بحتة. وقد أفصح جريجوري عن هذا الرأي بعد لقائه مع مكسيموس السينائي في صيف عام ٣٨٠م. حين ألقى خطبتين حول هذا الموضوع هما ٢٥، ٢٦ في مدح Maximus. ومن المحتمل أيضًا أنه ألف قصائده عن الكلبية في وقت ما بين عامي ٣٧٩ م – ٣٨٠م أثناء مساجلاته مع مكسيموس. إلا أنه لم يربط الفلسفة المسيحية الأخلاقية بالكلبية في فترات متأخرة من حياته.[٤٣] والسؤال هنا هل الممارسات الأخلاقية الممثلة في الفلسفة الكلبية كافية لرفع الإنسان إلى مستوى المعرفة الحقيقية عن الله ؟، أم تظل مجرد ممارسات غير مكتملة يعوزها العلم الحقيقي المتجسد في الفلسفة المسيحية؟ بالطبع الإجابة على الجانب الأول من التساؤل تكون بالنفي، وتظل تلك المعرفة ناقصة ما لم تستعين بالفلسفة المسيحية التي تمثل المعرفة الحقيقية عن الله، والتي لا تُكتسب من

[٤٢] - القديس جريجوري النزينزي: الخطاب ٢٩ الخطاب اللاهوتي الثاني "في اللاهوت "، فقرة ٤، ص ٤٣.

[43] - Claudio Moreschini: gregory Nazianzen and Philosophy، with Remarks on gregory's Cynicism,(IN), Re-reading Gregory of Nazianzus : essays on history, theology, and culture, edited by. Christopher A. Beeley: Catholic University of America Press, U. S. A, 2012,p. 110.

خلال الممارسات التأملية فحسب. وهذا ما سيتضح في نهاية حديثه عن الكلبية وفي فترات نضوجه الفكري المتأخرة.

وتظل الخطبة ٢٥ وثيقة مبتكرة بشكل غير عادي؛ لأنها تقدم بوضوح مشروعًا توفيقياً بين الأخلاق المسيحية –التي تظل على أي حال فوق الأخلاق الوثنية– والكلبية Cynicism. ففيها يعارض جريجوري الحكمة الزائفة للفلسفات الأخرى ويضعها في مواجهة شجاعة وإخلاص الفيلسوف الكلبي the Cynic philosopher. وقد امتدح فلسفة الكلبيين بصفة عامة، واعتبر مكسيموس Maximus الفيلسوف المسيحي هو النموذج الأمثل بين كل الفلاسفة والشهداء الحقيقيين.(٤٤) إن التزامه بالأخلاق المسيحية هائل. إنه كلبي، بفضل خطابه الصريح في الدفاع عن الإيمان المستقيم. بهذه الطريقة أظهر مكسيموس نبلًا حقيقيًا يُظهر نبل الوجود المسيحي الحقيقي. لهذا السبب مكسيموس هو مواطن العالم بأكمله رغم انتمائه جسديًا إلى مواطني مدينة الإسكندرية؛ لكون الفلاسفة الكلبيين لا يكترثون ولا يتقيدون بحدود معينة. ويفضل مكسيموس حياة التنقل والترحال على الحياة الحبيسة المنغلقة؛ للقيام بمهامه التبشيرية بشكل أفضل؛ ولذلك فإن انتماءه المسيحي الكلبي هو حجة ضد كبرياء اليونانيين.(٤٥)

باختصار، مثلت الفلسفة الكلبية المثال الأخلاقي الذي ينوي جريجوري اقتراحه، والتي تكرس اهتمامها الكامل لتعليم الإنسان. وقد تم إدماجها في السياق التاريخي والاجتماعي للمسيحية في القرن الرابع، ذلك الوقت الذي بدت فيه الحياة المسيحية تعيش في أبهى صورها، سواء كانت الحياة الرهبانية أو التأملية أو الحياة العملية في وسط المجتمع. ويقترح جريجوري حلاً توفيقيًا بين الكلبية والمسيحية؛ فهو يأخذ المبادئ الأخلاقية للفلسفة الكلبية، مثل ازدراء الخيرات الدنيوية، وصدق القول، وحرية الروح في حضور السلاطين، والاقتناع بأن المرء "مواطن من العالم "، ويفسرها بمفتاح مسيحي.(٤٦) هناك العديد من أوجه الشبه بين الأقوال التي يمكن العثور عليها في الأناجيل وتلك المرتبطة بالكلبية. على عكس معظم معاصريهم ، نظر الكلبيون نظرة إيجابية للفقر ، وهذا يجد الكثير من أصدائه في العهد الجديد. ويشير الخطاب الذي ألقاه جريجوري النزينزي إلى أنه حتى لو لم يكن للكلبية تأثير مباشر على يسوع نفسه، فإن بعض المسيحيين الأوائل قد أدركوا أن الكلبيين متقاربين روحيًا معهم بمعنى ما.(٤٧)

44 - Trevor Curnow: Ancient Philosophy and Everyday Life, first published, Cambridge Scholars Publishing, 2006, London, p.14.

45 - Claudio Moreschini: Op. Cit, p.p. 111, 112.

46 - Claudio Moreschini: p. 113.

47 - Trevor Curnow: Op. Cit, p. 14.

وقد جاء ذكر الكلبية في شعره حيث تعود الموضوعات الأخلاقية التي تم التعبير عنها في الخطبة ٢٥ إلى قصائد مختلفة لذلك الغرض. من بينها، قصيدة "في الفضيلة". حيث يمتدح عباءة الكلبي وعكازه، ومع ذلك فإن نموذج جريجوري للحياة الفاضلة مستمد بشكل قاطع من الزهد المسيحي. فمن أجل بلوغ الفضيلة، يمكن العثور على أمثلة مفيدة في الكتابات الوثنية مثل الحديث عن: الفقر والزهد والقوة والاعتدال. وهو يستعمل نماذج لأماكن وأشخاص مستمدين من ميراث الفلسفة الشعبية، ويوظف كذلك تفاصيل أسلوبيه من الهجاء مثل فاصله الالتفات والتساؤلات البلاغية. كما يذكر أعلام الكلبيين مثل ديوجين Diogenes (٤٢١ – ٣٢٣ ق م) وكراتيس Crates، ويقدم سلسلة من الأمثلة على الفقر الاختياري الذي كان نتيجة لقرار مستقل. لكنه حريص على مسايرة المنظور المسيحي الذي يعطيها أهميتها الحقيقية: "من هذه الأمثلة، أن أعيش وفقًا لقوانيني، التي تسمح لي أن أحلق في الحياة كطير، وأتناول طعامًا حُرًا، أجده في الزنابق الجميلة". "وأن أرتدى ملابس رائعة أغزلها من لباس بسيط، بشرط أن أعبد الإله الواحد العظيم".(٤٨)

وقد كان ديوجين Diogenes، النموذج الأمثل لـ الكلبي Cynics، فهو مثير للإعجاب بسبب فقره ونظامه الغذائي البسيط. لقد كان مثالاً للمسيحيين حتى في سلوكه المتمرد المعادي للمجتمع. كما امتدح جريجوري سلوك كراتيس Crates وغيره من فلاسفة الكلبية، وذكرهم مرات عدة في خطبه وأشعاره.(٤٩) ويمكن فهم الكلبية بالمعنى المسيحي بقدر ما ترصد وتدين العيوب البشرية؛ لأن العقيدة المسيحية تقدم جملة من النصائح حول الفضيلة. لهذا السبب يقارن الخيرات الدنيوية بتلك الموجودة في الآخرة: فالثروة والسخاء يقابلهما الله والأشياء السماوية، القوة الدنيوية تقاوم بصليب المسيح. وتعد مجموعة الأقوال الأخلاقية المختصرة لجريجوري نموذجًا للبلاغة، حيث يؤكد فيها أن أمثلة الفضيلة الوثنية، رغم روعتها قد أفسدتها سلسلة من العيوب التي قللت من فضيلتها وخاصة التباهي والشراهة، والتي لوحظت بشكل خفي في كتاباتهم، "كما لوحظ أن البعض جعل الفقر سببًا للسعادة." كما أصيب بعض الوثنيين الحكماء بأبشع الرذائل. بالنسبة لهم، كانت المظاهر أكثر أهمية من البحث الحقيقي عن الفضيلة وكان سلوكهم الفاضل باطل. وخلاصة القول: بالنظر إلى حقيقة التعاليم الأخلاقية للمسيحية، فقد يتم انتقاد حتى الكلبية؛ لأن الوقاحة والغطرسة والفجور أمر غير مقبول.(٥٠)

48 - Ibid:p. 113.
49 - Trevor Curnow: Op. Cit, p. 115.
50 - Claudio Moreschini: Op. Cit, p. 114.

وقد يتساءل البعض، ما الذي دفع جريجوري لمحاولة ما اعتبره توفيقًا حقيقيًا بين الكلبية والمسيحية؟. وتتلخص الإجابة في وجود هدف مشترك لكلا النظامين تمثل في خلاص الإنسان داخل المجتمع وداخل ضميره. فقد نال المثل الأعلى الكلبي اهتمامًا متزايدًا تحت سيطرة الإمبراطور جوليان. كما تطورت الكلبية ونمت من بقايا الأنظمة الفلسفية واللاهوتية والسياسية القديمة، كذلك تطورت المسيحية في عهد جوليان وبعده. على هذا الأساس، يظهر توازيًا بين المسيحية والكلبية. وقد نظر إلى الكلبية القديمة أكثر من غيرها من الانظمة المعاصرة له، كمصدر موثوق لحياة منفصلة عن العالم، ولهذا السبب اتخذ موقفًا معتدلًا تجاهها، كما فعل مع الأفلاطونية. لكنه لم يقبلها دون تحفظ وهذا هو الموقف التقليدي للثقافة المسيحية فيما يتعلق باليونانيين.[٥١] إذن هناك أثر أفلاطوني كلبي واضح على فكر جريجوري، وقد أقر هو نفسه بذلك حين استعان بأفكار أفلاطون عن النفس وعلاقتها بالجسد، وعدم التعلق بالشهوات. وانحيازه نحو الأخلاق الكلبية ومدحه لسلوك بعض أعلام الفلسفة الكلبية مثل ديوجين وغيره، وكذلك حديثه عن أسلوب معيشتهم المعتمد على الفقر وعدم التعلق بالدنيا وغيرها. لكن يعود ويؤكد دائمًا أن هناك نقصًا معينًا يشوب تلك الفلسفات، وأن المسيحية تتفوق عليها؛ لكمالها وجمعها بين العمل والنظر معًا.

أما عن مدى تأثر جريجوري بالنظريات الفلسفية، فهو محدود للغاية فقد أخذ عن الفلاسفة الحكمة العقلية بعد (تعميدها) أو مسحها بزيت الإيمان ولعله كان فيثاغورياً وسقراطياً وميغارياً أكثر من تأثره بالنظريات المادية أو التفسيرات العقلية للعالم من جهة والإله من جهة أخرى. وكان أبعد ما يكون عن إله ارسطو؛ لأنه صورة خالصة وليس له أدنى صلة بخلاص العالم أو الناسوتية. فمن المعروف أن مصطلح "فلسفة" بالنسبة للآباء الكبادوكيين – خاصة بالنسبة لجريجوري النزينزي – يشير إلى نمط "الحياة المسيحية" أو "التأمل في التعاليم المسيحية". وعند الحديث عن التأمل في الحقيقة المسيحية، يذكر الفلاسفة واللاهوتيين بصورة تكاد تكون متساوية في أعماله، باعتبار أن كليهما حكماء ينشدون الحقيقة على الرغم من أن ذكر الفلاسفة يحدث بشكل واضح وذلك على النقيض من كتابات اللاهوتيين في هذه الحقبة. ومع ذلك، رغم هذا الإدراك المتجذر والعميق، يحمل الفلاسفة معنىً مثيرًا للجدل – من وجهة نظره –. وحتى عندما يصف نفسه وأسلوب حياته بطريقة تختلف عن تلك التي لدى سكان القسطنطينية الأقوياء والمثقفين "الأذكياء". فهو يتحدث عن نفسه بأنه مفكر محافظ وفيلسوف يؤمن أن هناك سماءً واحدة تظل الجميع ؛ وكذلك حال الشمس والقمر! " ويتحدث في مواضع أخرى من مؤلفاته، عن الفلاسفة الماديين والوثانيين والمنكرين للكلمة الأزلية لتمييز وجهات نظره عن آرائهم ، حيث يذكر: "بما أنني جادلت معك بطريقة

51 - Ibid: p.p 120, 121.

تافهة حول هذه الأمور، سأشرع الآن في أخذ نظرة فلسفية أكبر عنها".[٥٢] كما يتحدث عن تقديره للفلسفة والفلاسفة فيقول:" نحن ندرس ونقدر جمهرة واسعة من خيار فلاسفة الإغريق. ونعتبر الفلسفة اليونانية قبس من نور المسيح الكامل وشمسه العامة المضيئة الكون كله نقدرها.[٥٣] إلا من شرد بعيداً عن القطيع المُدرك لحقيقة الكلمة ومن الملاحظ هنا أن جريجوري ينتمي بصفة واضحة إلى تيار اللاهوتيين المسيحيين الذين يغلبون ويقدمون السلطة الدينية الإيمانية، بل وفوقيتها على الجانب العقلي الممثل في وجهات نظر الفلاسفة والمثقفين، واعتبار العقل ما هو إلا جزء من السلسلة المعرفية، ويصبح دوره هامشي إذا ابتعد عن الإيمان.

وهذا ينقلنا مباشرة إلى الحديث عن المشكلة الرئيسة المشتركة بين غالبية الكتاب المسيحيين في العصر الوسيط، والتي تتمحور في السؤال: هل توجد فلسفة حقيقية خارج المسيحية؟ بالتأكيد لا. فقط المسيحية تمتلك الحق، والفلسفة الوثنية ليست سوى شكل أدنى من المعرفة ؛ قد تمنح – في أحسن الأحوال – بعض الأدوات العقلية التي توضح وتعمق ما تمتلكه المسيحية من الوحي والتقليد. بالنسبة للآباء الكبادوكيين وعدد من الكتاب المسيحيين الآخرين، فإن العديد من هذه الأدوات العقلية تنبع من الأفلاطونية. وهناك تفسير مبتكر في عديد من الجوانب: يرى أن الفلسفة الأفلاطونية ليست الأساس في تفكير جريجوري، بل الخطاب الفلسفي إجمالاً جزء أساسي من تكوينه الثقافي، حيث تلقى تعليمه في أثينا على عكس الكتاب المسيحيين الآخرين. ودرس الخطابة السفسطائية. أضف إلى ذلك ما اكتُشف من وجود اقتباسات منطقية مشتقة من البلاغة الفلسفية الفيثاغورية والأفلاطونية . في مقاطع مختلفة من خطبه اللاهوتية. قد تكون هذه هي الطريقة التي " بها يمنح الإيمان البرهان الكامل" عنده.[٥٤]

ورغم تقديره للفلسفة، إلا أنه نقضها في خطاباته الوعظية التي تخاطب العوام. وهناك أمثلة كثيرة في كتابه المصاولات القادحة Invectives ضد جوليان، يسخر فيها من أفلاطون، وكريسيبوس والمشائيين وأسلوب التقشف الرواقي، بالإضافة إلى اللغة الفلسفية المخادعة، ومطلب دراسة الهندسة، ومناقشات العدالة، وحتى المبدأ القائل "من الأفضل أن تصبر وتتحمل آلم الجرائم والشرورعوضاً عن ارتكابها". لقد تعلم جريجوري هذه الأشياء من أساتذته النبلاء من علماء اللاهوت مثل مكسيموس الأفسوسي والمدافعين ورجال الدين. وهناك نوع أخر من الفلاسفة تجدهم في أزقات الطرق وفي الأحياء

---

52 - Claudio Moreschini: Op. Cit, p. 103.

٥٣ – مختارات من القديس جريجوري اللاهوتي النزينزي: مصدر سابق، ص ٥٨.

54 - Claudio Moreschini: Op. Cit, p.p. 109, 110.

الفقيرة (الكلبيون)، منغمسون في المعصية ولا يجيدون البلاغة. كما يتخيل الفلاسفة مدنًا مثالية غير موجودة، ومع ذلك يعشقون تمجيد الاستبداد (إشارة إلى أفلاطون واستسلامه لديونيسيوس، طاغية سيراكيوز). وهناك عديد من المذاهب الفلسفية الفاسدة مثل: القول بعدم وجود الله والعناية الإلهية، والتأكيد على أن كل شيء يتحرك بالصدفة أو بالضرورة أو بالحركة النجمية، وأن حركة النجوم تحدث بواسطة محركات غير معروفة في أماكن غير معروفة. كما يتبنى فلاسفة آخرون مذهب اللذة أو المتعة. هؤلاء بجملتهم منغمسون في الوحل والضلال، ولا يمتلكون القدرة على التعليم مثلهم مثل الشياطين، وهم غير قادرين على الارتقاء بأنفسهم إلى مستوى يليق بخالقهم. حتى أنهم لم يدركوا بعضًا من الحقيقة؛ لأنهم لم ينالوا إرشاد ومعونة "اللوجوس" أو الروح القدس وبالتالي افتقروا إلى معرفة الرب؛ ولذلك تأثروا بأشياء ساذجة بسبب قربهم من فكر العامة والجاهلين.[٥٥] كما يصبح موقفه النقدي تجاه الفلسفة أكثر حدة وإثارة للاهتمام عندما يصرف انتباهه إلى الاتجاهات الفلسفية المعاصرة وإلى الطوائف السرية. ويشير إلى التفاصيل الكاملة عن الآلهة والذبائح والأوثان والشياطين، سواء أكانت صالحة أم خبيثة، وجميع الحيل التي يمارسها الناس بالعرافة، واستحضار الأرواح والأشباح، أو النفوس، وقوة النجوم." والسفسطة، أو التلاعب اللغوي. ويجسد جدل جريجوري مع جوليان اتهامه للفلسفة والوثنية. فلقد ضُلل جوليان من بعض الفلاسفة الآسيويين المهرطقين (على الأرجح هم أفلاطونيون محليون جدد) وقد مارسوا ضغوطًا عليه ليتعلم التنجيم والأبراج والعرافة والفنون السحرية، وانضم جوليان إلى هذه الفلسفة الخاطئة من الجماعات والمحافل السرية والتي تسببت في اضلال الذات وتلوثها، والعربدة الفريجية، وعبادة ميثرا(*) والاحتفالات السرية، والأورفية، والطقوس الليلية، وعلم التنجيم، والتي كان الجانب الوحيد المضيء فيها هو النجم الذي قاد المجوس الثلاثة إلى بيت لحم.[٥٦]

وقد وجّه جريجوري انتقادًا حادًا للعلوم الدنيوية في مقابل العلوم الإلهية الدينية، فبالنسبة له، من الضروري أن ينأى المرء بنفسه عن العلوم الدنيوية المادية، أو على الأقل ألا ينال منها قسطًا كبيرًا، وأن يكرس ذاته قبل كل شيء للفلسفة الحقيقية. صرّح بذلك في خطبته الجنائزية، عن أخيه قيصريوس Caesarius وخطبته التذكارية عن صديقه باسيل Basil؛[٥٧] ولذلك بات أعلام الفلاسفة ومشاهيرهم

55 - Claudio Moreschini: Op. Cit, p. 103.

* - الميثرائية: هي ديانة شاعت في الثقافة الرومانية باعتبارها احدى الديانات الباطنية. ويرد تسميتها إلى النجم ميثراً الذي قاد المجوس إلى بيت لحم.

56 - Claudio Moreschini: p. 108.

57- Ibid: p. 105.

موضع انتقاده: أمثال انتستانس Antisthenes وديوجين Diogenes وأبيقور Epicurus والماديين والهراطقة وكليانتس Cleanthes وأنكساجوراس Anaxagoras وهراقليطس Heraclitus. حيث يتحدث بشكل ساخر عن نموذج جوليان المثالي Julian's ideal لتوحيد الحكم تحت مظلة الفلسفة. كما أنه ينتقد فيثاغورس Pythagoras لإمعانه في التجريد، و النحلة الأورفية Orphics لأنغماسها في الحب الجسدي بجانب طقوسها الروحية ، وأفلاطون بسبب مذهبه المثالي. لقد عارض أبيقور، وكذلك أرسطو لإنكارهم للعناية الربانية والخلاص والسعادة الإيمانية ، وحدتهما، وأفكارهما المتعلقة بفناء الروح، ودناءة مذهبيهما. وانتقد تعالي الرواقية وجحدهم للكلمة وتقشف وتسول وتشرد الكلبيين؛ كما انتقد الذريين Atomists بسبب مذاهبهم الخاصة بالامتلاء والفراغ وماديتهم. وهناك إشارات جدلية إلى سكستوس أمبريقوس Sextus Empiricus و بيرون Pyrrho وموقف الشكاك من "معارضة كل شيء". "ومعارضته لعدم جدوى فنون البايديا(*)، والقياسات المنطقية، والحروف، والهندسة، والتأمل في حركة النجوم. وقد ذكر ذلك بوضوح في محادثته لأخيه قيصريوس ناصحاً إياه ومؤكدًا له بأن دراسة تلك العلوم ستصبح بلا جدوي؛ لأنه بعد وفاته لن يكرس وقته لطب أبقراط وجالينوس أو خصومهما، أو هندسة إقليدس وبطليموس ومالك الحزين، أو لتفاخر أفلاطون وأرسطو وبيرو أو شخصيات أخرى.[٥٨] ومن جوانب نقص الفلسفة اليونانية: أنها لا تبحث سوى في الجانب النظري فقط أي الحكمة العقلية ولا تعالج الجانب العملي السلوكي، وهذا ما جاء في قوله:" أعلم أن ثمرة الحكمة في ظاهرها قليلة لكنها لا تُقدر بثمن، وليس كل الكلام حكم وجوهر الحقيقة في المعايشة والتطبيق. وأعلم أن الطهارة فعل والعفة سلوك لا يتحقق بالأماني أو الآمال أو الوصف أو العظة.[٥٩] ونجد صدى هذه النظرة عند معاصره أوغسطين (٣٥٤/٤٣٠م) ، حين ذكر أن موضوع الفلسفة يقتصر على التأمل والمعرفة النظرية المجردة، وأنها لا تنفذ إلى معالجة السلوك الإنساني والحقيقة في ذاتها مثلما تفعل المسيحية، من ناحية أنها تقدم حلول عملية لمشكلات تؤرق الإنسان مثل كيفية الخلاص وسبيله، وماهية الحلول الإيمانية والتجسد الإلهي؟، ومفهوم النعمة الإلهية، وكذلك اللطف والبركة الإلهيتين وغير ذلك من الأفكار العملية. وتبدو أصالة تعاليم جريجوري في تفكيره الناقد الذي فصل بين الإيمان العقلي وعقلانية التفلسف (آمن كي أعقل) . فقد

* – تعتاليم البايديا (Paideia): هي أحدى طرق تثقيف وتدريب الذهن الإنساني وذلك وفق المعارف الموروثة التي تمتلك الحقائق كلها عند اليونان والرومان.

58 - Claudio Moreschini: Op. Cit, p. 104.

٥٩ – مختارات من القديس جريجوري اللاهوتي النزينزي: مصدر سابق، ص ٥٨.

أعجب بأفكار الفلاسفة عن نظام العالم وتناغمه وترتيبه واستدل من خلالها على وجود الخالق، ولكنه رفض في الوقت نفسه أفكار مثل إنكار البعض لمفهوم العناية الإلهية، وكذلك بعض الممارسات غير الأخلاقية التي تجسدت في معظمها في سلوك الفلاسفة أنفسهم.

ثالثًا: معرفة الله من اللاهوت إلى الاستنارة.

قصر جريجوري اكتشاف المعرفة على الجانب اللاهوتي فحسب، فالمعرفة اللاهوتية هي المعرفة الوحيدة الحقيقية والجديرة بالبحث والنظر دون سواها. ولا يمكن تحقيقها على المستوى الإنساني المادي؛ ولذلك تظل المعرفة الإلهية هي المعرفة الحقيقية الكاملة – من وجهة نظره–، وهى معرفة ليست سهلة المنال، ولن يستطيع أحد إدراكها كاملة دون تدرب وعناء. ووسيلة بلوغها التفلسف الصحيح عن الرب، المعتمد في الأساس على العمل والمشقة اللتان تؤهلان اللاهوتي دون سواه لبلوغ تلك المعرفة. ولذلك وضع مجموعة من الشروط الواجبة على اللاهوتي إذا أراد بلوغ تلك الحقيقة. فيتحدث في البداية عن العلاقة بين المسيح واللاهوتي، ثم درجات التطهير اللازمة المؤهلة لنيل المعرفة الإلهية، وأخيرًا تحقق الاستنارة للاهوتي جراء تلك الممارسات.

أ- معرفة الذات ومعرفة المسيح عند اللاهوتي.

إن أحد أكثر الجوانب المميزة لعمل جريجوري والمبدأ الأساسي لنظامه اللاهوتي هو إصراره المتكرر على أن معرفة المسيح مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحالة العارف البشري – وأن اللاهوت يتطلب إحداث تغيير في حالة اللاهوتي، وأنه يتضمن مجموعة واسعة من الاهتمامات العملية والنظرية التي تعتبر جزءًا لا يتجزأ من معناه الأساسي.[٦٠] وهنا نجد أن جريجوري يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن معرفة الذات الإنسانية هي الركيزة الأولى التي ينطلق منها الإنسان لبلوغ طريق المعرفة الإلهية. ولذلك نجده يضع التطهير قاعدة أولى للحصول على المعرفة. والتي تشتمل على مجموعة ممارسات مترابطة، منها عدم التعلق بالماديات أو الأشياء الجسدية ومجموعة ممارسات أخرى تتعلق بالتربية المسيحية مثل الصوم، والانسحاق القلبي، والسهر، والصلاة ،والترفع والتعفف عن الشهوات المادية وغيرها. ويحاول جريجوري ترسيخ قاعدة مهمة تتمثل في الارتباط بين معرفة الذات بطريقة صحيحة من خلال التطهير والحقيقة المسيحية؛ فمن خلال الدمج بين معرفة الذات والحقيقة المسيحية يستطيع الإنسان الوصول إلى الاستنارة، ومن ثم معرفة الرب حسب درجة تطهيره وقوة إيمانه، ومن هنا يمكننا التماس أثر بوذي على

[60] - Christopher A. Beeley: Gregory of Nazianzus on the Trinity and the knowledge of God: in your light we shall see light, p 63.

أفكار جريجوري إذا ما طبقنا على نصوصه (علم تاريخ الأفكار) والمنهج الأركولوجي **archaeology** وإذا ما انتقلنا إلى ماهية اللاهوت المسيحي عند جريجوري سوف نجده يتضمن علاقة ديناميكية معيشية بين المسيح واللاهوتي؛ ولذا فهو يبدأ ليس بمعلومات مجردة عن الرب– كما لو كان يمكن الحصول عليها بشكل محايد – ولكن مع تحول اللاهوتي في الأفق. عن حضور الرب ونشاطه في العالم، كما هو معترف به في حياة الكنيسة. إنها لازمة اساسية في عمل جريجوري مفادها أن التقدم الروحي والإيمان الصحيح لا ينفصلان. بعبارة أخرى، فإن تعاليمه عن الرب وعن الإنسان تنطوي في جوهرها على بعضها البعض؛ فمن المستحيل فصل عقيدته عن الرب عن الوسائل التي يُعرَف بها الرب. وهكذا فإن عقيدته عن الثالوث تتضمن موقفه اللاهوتي المتعلق بالرب، واللاهوت هو استنارة حقيقية للاهوتي الذي يبدأ في السرّ الإلهي بطرق ملموسة وبعيدة المدى. ويصر مرارًا وتكرارًا على أنه يجب أن نبدأ من هنا.[٦١] حتى أنه يذكر ذلك في خطابه الموجّه إلى الفيلسوف آرن، مذكرًا إياه بأن مكانة اللاهوتي يستحقها من مر بمجموعة مراحل، تأتي في قوله:" وشفيعك إلى هذه المنزلة هو خدمة الكلمة، والحياة الطاهرة، والتنقية التي حصلت عليها بالجهاد والتعذيب".[٦٢] وهو يرى أن حياة الفيلسوف التي يعيشها "آرن"، تمثل نموذج الحياة المثالية، التي تتسم بمجموعة من المميزات قائلاً:" وقد اخترت طريق الحياة المناسب، مرتفعًا فوق الأمور الحياتية: محتقرًا اللذة والملذات والسلطان الذي يمارسه المتنفذون، متنكرًا للأرض والأرضيات.[٦٣] وبذلك قد يدخل الفرد طريق الخير والصلاح، ويرتبط هذا الطريق ليس بفلسفة الفلاسفة اليونانيين، التي تتلاعب بظلال الحقيقة، والتي تتخذ من الكلمات الأنيقة والجمل المنمقة سُبلًا للمعرفة الكاذبة. ولكن بالفلسفة المسيحية المتسمة بالتواضع في مظهرها، ذات المضمون السامي الذي يوجه الفرد إلى طريق الرب. وتتمثل الفلسفة الحقيقية في ثبات النفس ونقاوة العقل والميل الصادق إلى الخير، وممارسة العلوم التي تمهد الطريق للعلم الإلهي فحسب. ولذلك أكد أن الذين يعملون ويهتمون بالهندسة والدوائر والفلك لن يفيدوا الحياة بشيء ولن يفسروا سر الكون بأسره؛ لأن العلم الإلهي أسمى من تلك العلوم بكثير.[٦٤] **وهنا نلحظ تفضيله العلم الإلهي على سائر العلوم الدنيوية، مؤكدًا في الوقت نفسه أن العلوم الدنيوية ليست ذات جدوى، وأن ما يبقى للإنسان هو ما يتحصل عليه ويبلغه من العلوم الإلهية. وفي الحقيقة لم يوفق جريجوري كثيرًا في طرح وجهة النظر تلك، ولم ينفك يتابع مع غيره من رجال الدين تهميش دور**

---

[61] - Christopher A. Beeley: Op. Cit, p 64.

[٦٢] - مختارات من القديس جريجوري اللاهوتي النزينزي: الخطاب إلى"الفيلسوف آرن"، مصدر سابق، ص ١١٢.

[٦٣] - نفس المصدر السابق: ص ١١٣.

[٦٤] - مختارات من القديس جريجوري اللاهوتي النزينزي: الخطاب إلى"الفيلسوف آرن": ص ص ١١٣، ١١٤.

العلم والعلوم الطبيعية. هذا أحد أهم أسباب تأخر فلسفة العصر الوسيط ووصفها بفترة ظلام وجهل، وقد انسحبت تلك الرؤية على غالبية لاهوتي العصر الوسيط، وصولاً إلى عصر النهضة.

تتمثل النقطة الأولى في عقيدة جريجوري – في كلٍ نصوصه الرئيسية – في جدلية التجاذب بين التنقية Purification والاستنارة Illumination، اللتان تشكلان الإطار الروحي الذي تتم فيه معرفة الرب ومحتوى اللاهوت ومعناه. تمتد هذه الديناميكية في جميع أجزاء كتاباته، وتبرز بشكل خاص في الأعمال التي كتبها في سن متقدمة، منذ وصوله إلى القسطنطينية حتى نهاية حياته (٣٧٩-٣٩٠م). حيث يبدأ خطبه ليس بأفكار عن الرب أو المسيح أو الروح القدس، بل بمقدمة مشحونة بالبلاغة تركز على شخصية القارئ وموقفه تجاه الله، من أجل تهيئة الظروف البشرية لإمكانية معرفة الرب. لقد خصص الخطبة اللاهوتية الأولى بالكامل لهذا الموضوع، وفي بداية الثانية قدم بيانًا نموذجيًا أكثر عن الفكرة. مصورًا العلاقة بين الرب واللاهوتي بشكل درامي في رواية بضمير المتكلم عن صعود موسى إلى جبل سيناء للقاء الرب، هذا الموضوع الذي سيصبح مؤثراً بشكل كبير في التقاليد اللاحقة للروحانية المسيحية. في حركتين متميزتين، يصور المقطع جدلية التطهير والاستنارة التي تحدث فيها معرفة الرب. يلخص هذا النص الكثير من تفكيره حول التطور اللاهوتي، وبالتالي سيكون بمثابة أداة تنظيم للنصوص والموضوعات المتعددة في هذا الصدد.[٦٥]

لذلك يذكر جريجوري في البداية الشروط الواجب توافرها في اللاهوتي أو الراغب في التحدث عن الأمور الإلهية، إضافة إلى عرضه للوقت المناسب والكيفية التي يمكن أن يكون عليها الحديث عن الرب. تمهيدًا لتنقيته للانتقال إلى المرحلة التالية وهي مرحلة الاستنارة ومن ثم المعرفة، حين نادي بضرورة أن تتوافر في المتحدث بالفلسفة والمتكلم في الإلهيات بعض الشروط، وهذا في حواره اللاهوتي الأول ضد بدعة أفنوميس الأريوسي فيقول: "ليس لكل إنسان أن يتفلسف في شأن الرب، ليس ذلك أمر زهيد الثمن، ولا هو من شأن الزاحفين في التراب. وأزيد: لا في كل حين، ولا أمام الجميع، ولا في كل شيء، بل عندما يلزم، ولمن يلزم، وبقدر ما يلزم.[٦٦] وأما الوقت فيكون إذا حصل لنا في دواخلنا سكون ولا نتأثر بالحركات الخارجية، ولا تضيق أنفاسنا كما تتقطع أنفاس المصابين بمرض الصدر. وأما المقدار فيكون بقدر ما نفهم وبقدر ما يفهمنا السامعون.[٦٧] ويستطرد قائلاً: ليس ذلك من شأن جميع الناس، بل

---

65 - Christopher A. Beeley: Op. Cit, p p 64 , 65.

٦٦ – القديس جريجوري النزينزي: الخطاب ٢٧ الخطاب اللاهوتي الأول "رد تمهيدي على أتباع أفنوميس"، فقرة ٣، مصدر سابق، ص ٢٧.

٦٧ - ميامر القديس إجريجوري الناطق بالإلهيات: إعداد راهب من دير المحرق، تقديم الأنبا ساويرس، الجزء الأول، مخطوطات دير المحرق، القاهرة، د. ت، ص ١٨٨.

من شأن الذين تمرسوا بالأمل وصعدوا فيه، وقبل ذلك من شأن الذين طهروا النفس والجسد، أو الذين هم على الأقل في طريق ذلك التطهير. فمن الطاهر في غير طهارة أمر غير مأمون العاقبة، كما هي حال العيون الضعيفة أمام أشعة الشمس. وفي أي وقت؟ عندما نُتيح لأنفسنا سانحة الخروج من الحمأة ومن الضياع، وعندما يكون سلطان الحكم فينا غير غارق في التصورات المقلقة والباطلة، وإلا كنا كمن يمزج الخط الجميل بخرابيشه القبيحة، أو عرف الأطياب بالمقاذر. أجل يجب أن نتيح لأنفسنا السانحة وأن نعرف الرب، ونحكم باستقامة اللاهوت متى بلغنا ميقاتنا. وأمام من؟ أمام من تعنيهم القضية ويغارون عليها، لا أمام من هي لهم كسائر الأشياء التي يتلهون بها في ثرثرتهم بعد حفلات السباق والمسرح والغناء وبعد متعة البطن وما تحت البطن: هؤلاء يجدون مجال ترفيه واسترخاء في معالجة هذه القضية بالمكايدة وحلقات الجدل. وفيما يكون التفلسف وبأي قدر يكون في ما هو لنا من المدركات، وفي ما للمستمعين طاقة وقدرة على إدراكه، وإلا فكما تؤذي الأصوات الشديدة الآذان، والأطعمة القوية الأجسام، أو – إذا أردت – كما ترهق الأحمال الباهظة طاقة راعيها، أو كما تسيء وابلات الأمطار إلى الأرض، هكذا تكون حال أولئك المستمعين، الذين يرهقهم ويبهظهم ما في الخطب من عوص – إذا صح القول – فينهار ما كان متبقيا لديهم من طاقة.[٦٨]

هنا نجد أن الحديث في الأمور الإلهية له شروط كما أن له أوقات؛ ولذلك لا يفضل جريجوري الجدل في مثل تلك الأمور ليل نهار أو في وقته وغير وقته، وحتى إن حدث ذلك الجدل أو الحديث عن الله فيجب أن يتم بضوابط معينة تحفظ العقل وتصونه. **وهو يوجه انتقادًا حادًا لطريقة الجدل والمناقشة الزائفة غير المفيدة من وجهة نظره، عندما يحاور أفنوميس ويشرح له طُرق المعرفة المتعددة والمختلفة في أوجهها، فيقول له:**" وهكذا فلست أمانع الذكر الدائم للرب، بل الجدل في موضوع الرب، ولا أمانع الجدل على أنه كفر، بل على أنه تطفل، ولا التعليم، بل التفريط. الإكثار من أكل العسل يبعث على التقيؤ، وإن كان عسلا، ولكل أمر أوان، على ما يرى سليمان – وعلى ما أرى أنا أيضا – والجميل يكون غير جميل عندما يحدث بطريقة غير جمالية، تلك حال الزهرة، فهي في الشتاء في غير ميقاتها البتة، وكذلك زينه الرجال على النساء، وزينة النساء على الرجال، أو الهندسة في مأتم، أو الدموع في مأدبة، ونحن نستخف بالوقت الملائم هنا فقط حيث يجب الاهتمام الشديد بما هو ملائم؟ لا، لا، أيها الأصدقاء والإخوة لا نذهبن في مثل هذا التفكير، ولا نكونن كالخيول الجموحة الشموسة ونطوح بفارسنا – العقل – ولا نهمل التقوى التي تشدنا شدًا خيرًا، ولا نعدون خارج المضمار، ولكن لنلزمن حدودنا في

[٦٨] – القديس جريجوري النزينزي: فقرة ٣، ص ص ٢٨، ٢٩.

الجدل.[٦٩] ويمضي جريجوري في شرح ضوابط وشروط الجدل في المعرفة والأمور الإلهية ويقول:" ولنعلم أنه كما في الملبس والسلوك، والضحك، والسير أدب اعتدال، كذلك في الكلام والصمت، فإننا نجل الكلمة مع سائر أسماء الرب وقواته، وحبنا للجدل يجب أن يكون هو أيضا مقيدًا بنظام.[٧٠] ويضع ثلاثة شروط لبلوغ العلم الحقيقي: **أولاً** تنقية النفس. **ثانيًا** التواضع. **ثالثًا** أن نُبشر ونعلم عندما نكتمل روحيًا وجسديًا. وكل هذا يحدث في إطار عملية المعمودية التي يحصل عليها الشخص وينال حياة جديدة هي حياة الإيمان والمعرفة الحقيقيتين، ويوضح ذلك قائلاً: "فالأمر الأول، أمر التنقية، ينبغي أن نتذكر به أولئك الذين يرغبون أن يتعمدوا، ولم يتهيؤوا بعد للمعمودية، وليست عندهم الضمانات لممارسة الفضيلة من أجل كسب الخلاص الثابت. لأنه، إذا كانت نعمة المعمودية تمنح مغفرة الخطايا السالفة، فيجب أن يبقى المرء في خط التدين والتزام الوصايا حتى لا يعود إلى ما كان عليه. أما الأمر الثاني الذي هو التواضع وعدم الخجل، فنُذكّر به لكى لا ينكر المعترفون شيئًا من خطاياهم أمام الكهنة. وأما الثالث فنذكر به أولئك الذين يعتمدون على حماسهم واندفاعهم في التعليم مغتنمين كل الفرص حُبًا بالظهور.[٧١]

ويمكننا أن نلاحظ تأثر جريجوري في خطابه الوعظى والطهارة بأعتبارها مفتاح أبواب الوصال والإتصال بالمعرفة الإلهية والحقائق القدسية، بالعديد من الفلسفات السابقة مثل الغنوصية والهرمسية السقراطية والميغارية والرواقية والكلبية. أما حديثه عن الاستنارة فهو لا يخلو من أثر زرادشتي من جهة وبوذي من جهة أخرى، ولا يمكننا الوقوف على ذلك إلا بتفعيل علم تاريخ الأفكار كما ذكرنا ويرجع ذلك؛ لاننا لم نقف على كل مصادر جريجوري الفلسفية. **ويحدد جريجوري الموضوعات محل الجدل والنقاش لمن يرغب في ذلك، من خلال توجيه "أفنوميس" ليترك المناقشة والجدل في الأمور الإلهية ويتوجه لمناقشة آراء ونظريات الفلاسفة عوضًا عن ذلك. فيقول لأفنوميس:** قبّح معي صمت فيثاغورس عن حكمة الرب والأغاني الآورفية المتعلقة بالجمال الكوني دون خالقه، وذم معى المناظرات القائمة على القدح بين المختلفين في الرأي حول طبيعة المسيح، ولا تتعلق بمعسول الكلام الأفلاطوني عن المُثل، وذلك لأن ربه (مثال المُثل صورة خالصة ومثالاً مطلق) وهو بطبيعة الحال مختلف عن الطبيعة اللاهوتية ، ولا تعبئ بحديثه عن تناسخ الأرواح والتذكر، وكذا الحب الحسي والعشق البدني، وعليك أن تجحد تجديف أبيقور وحديثه عن الذرّة، واللذات المادية التي لا تليق بمقام الفلسفة، ولا تعبئ بحديث أرسطو عن المحرك الأول وعدم عنايته بالعالم وكتاباته الخطابية عن الفن والنفس، والمعرفة المنطقية، وعبوس الرواقيين، وحديثهم عن الاحتراق

---

[٦٩] – القديس جريجوري النزينزي: فقرة ٤، ص ص ٢٩، ٣٠.

[٧٠] – نفس المصدر: فقرة ٥، ص ٣١.

[٧١] – مختارات من القديس جريجوري اللاهوتي النزينزي: الظهور الإلهي في المسيح، ص ١٧٢.

الكلي والنار الخالدة، وتدني الكلبيين وسوقيتهم، ولا تعبئ كذلك بأحاديث الفلاسفة الماديين عن الملاء والفراغ والثبات والصيرورة، وتهكمهم على الإلهة والقرابين والمناثق والطقوس، وعقول الكواكب وعالم الأوراح الشاغل بالأسرار، وأعلم أخيراً أن كل ما يخالف تعاليم الرب هو لغواً مزموم وسماً منقوع في كأس مزخرف بالعقلانية الشيطانية. (٧٢) **تلك القضايا والموضوعات الأرشادية والتعاليم الإيمانية لا ينبغي أن تكون محل سجال أو نقاش لانها لا ترقى للحديث عنها لأنها من الضلالات التي يجب أجتنابها في رأي جريجوري ، ثم يستأنف حديثه إلى أفنوميس، قائلاً:**" لا ناقشني في موضوعات العالم أو العوالم، والمادة والروح، والطبائع العاقلة سواء كانت صالحة أو شريرة، والقيامة، والدينونة، والجزاء، وآلام المسيح. فالانتصار في هذا المجال لا يكن بلا جدوى، والفشل لا يكتنفه الخطر.(٧٣) والملاحظ من ذلك أن جريجوري يرى أن هناك موضوعات تطرحها الفلسفة مفيدة ونافعة وهناك موضوعات أخرى لا طائل من مناقشتها سوى الجدل العقيم. مثل الحديث عن ثنائية المادة والروح أو النفس والجسد أو الإنسان والعالم ، فقد شغلت جميعهاعشرات المناظرات بين الفلاسفة واللاهوتيين دون أن تظفر لإجابة مجدية وذلك لعدم أعتراف الطرفين بأن هذه الثنائية هي سنة كونية ارتضاها الرب الخالق للكون دون تبرير نستطيع فهمه بعقولنا القاصرة (أُمن أولاً ثم أعقل ما تستطيع تفسيره من كلام الرب فحسب).

ب- سُبل تطهير اللاهوتي.

ينتقل جريجوري من الحديث عن الموضوعات الجديرة بالإهتمام من جهة وشطح الفلاسفة ولغو المتشككين من جهة أخرى الذي يجب على اللاهوتيين العزوف عنه وإهماله، نجد فيلسوفنا يعتني بسبُل التخلية والتحلية –بتعبير الصوفية- أي شرح الدروب التي تمكن طلاب العلم الإلهي من أستقبال إلهامات الرب والإصغاء إلى صوت المسيح حتى يسكن في قلوبهم ويستقر في سرائرهم، وهنا نجده يقول:" إذا ما تخلصنا مما يتناقد مع ما نؤمن به فعلينا أن نتأمل ما أستقر في قلوبنا وأطمأنت له أرواحنا لنخرج أجمل ما بطن وأستتر شأن النحات أو المثّال الذي يخرج الصورة من عتامة الغيوم التي حجبتها عن الناظرين إلى عالم النور ليبصرها كل من له أعين، كما علينا أن نقلع عن اللجاجة في الحوار والفحش في التناظر، أن مثل ذلك لا يليق بنا فهل يجدي نباح الكلاب في تحاور العقلاء وأحاجي المؤمنين وأخيراً إياكم وتشويه أقدس ما فينا بالشهوات والطمع والأنانية ألا وهو الحب والعطف والتراحم، أفمن المعقول أن نبذل المحبة للأقارب والأهل والأخوات وإلى من نهوى ونعشق، ونحجبه عن الغرباء والمعوزين والفقراء والبوساء. ونردد

---

٧٢ – القديس جريجوري النزينزي: مصدر سابق، فقرة ١٠، ص ص ٣٦، ٣٧.

٧٣ – نفس المصدر: فقرة ١٠، ص ٣٧.

كلمات المحبة في صلواتنا وترانيمنا ألا نعجب بالترنم بالمزامير، وإحياء الليل بطوله وقوفاً، وسكب الدموع الغزيرة؟ ألا نقمع جسدنا بالصوم؟ ألا ننطلق إلى الله بالصلاة؟ ألا يجب علينا أن نخضع الناحية الدنيا فينا للعليا، و نُأثر الروح على الشهوة، كمن يحكمون الحكم العادل على هذا الكائن الخليط؟ ألا نجعل رحلة الحياة "تدربنا على الموت"؟ فيكتب لنا الخلود في معية أبينا القدوس؟[٧٤] **يفيد هذا بأن معرفة الذات الأساس في عملية التنقية، التي تؤهل الناسك أو اللاهوتي ليتقبل المعرفة الإلهية؛ فمعرفة الذات هي التي تقودنا إلى معرفة الله.**

وهو يؤمن أن التطهير purification من خلال السمو العقلي هو الطريق إلى معرفة الله. وقد ربط ذلك بجحد عالم المحسوسات المادي؛ لأن المحسوسات تظلم الذهن. ومجاهدة الشهوات، وبلوغ حالة عدم التألم أو اللاهوى أو عدم الاشتهاء. والناسك أو المتنسك هو إنسان حكيم وفيلسوف، ويشترك القديس جريجوري هنا مع العلامة كليمنت الإسكندري في وصفه الناسك بـ"العارف" أو "الغنوصي gnostic" بالمعنى المسيحي الإيجابي للكلمة.[٧٥] وينظر إلى ظهور موسى على جبل سيناء على أنه اللقاء الكتابي النموذجي مع الله قبل تجسد المسيح، وهو يمثل نموذجًا للاهوت المسيحي. هكذا تبدأ معرفة الله والعمل اللاهوتي التحويلي:[٧٦] إني أصعد إلى الجبل في اندفاع، أو بكلام أصح، في اندفاع وقلق، ورجاء، وضعف، وذلك لكي أدخل في الغمام، وأكون مع الله عن أمر منه، ولكن هذا الصعود وفقاً لأهلية المرء ودرجة تطهيره! وإن كان أحد غير طاهر البتة فلا يقترب؛ لأن اقترابه غير آمن، وإن كان تطهره لوقت موقوت فليمكث في الأسفل، وليكتف بسماع الصوت والبوق وكلمات التقوى فقط، ولينظر إلى الجبل مدخناً وساطعاً البروق، إنه تهديد لمن لا يستطيعون الصعود، وفي الوقت نفسه مبعث تعجب وإعجاب. وإن كان هنالك وحش شرير ضار غير قادر البتة على تقبل أقوال التأمل واللاهوت فليمكث بعيداً ولا يقترب من الجبل، وإلا رجم رجماً وحطم، "فيهلك ذلك الرديء على شر وجه"؛ لأن الأقوال الحقيقية والمتينة حجارة في وجه من يُشبهون الوحوش.[٧٧] وهنا يرى أنه وإن لم يستطيع إدراك جوهر الله ذاته،

---

[٧٤] - القديس جريجوري النزينزي: مصدر سابق، فقرة ٧، ص ٣٢.

[٧٥] - باسيليوس المقاري: دراسات في آباء الكنيسة، مطبعة دير القديس أنبا مقار، القاهرة، ص ٣٦٩.

76 - Christopher A. Beeley: Gregory of Nazianzus on the Trinity and the knowledge of God: in your light we shall see light, p 66.

[٧٧] - القديس جريجوري النزينزي: مصدر سابق، فقرة ٢، ص ٤٠.

لكنه وفقًا لأهليته ودرجة تطهره استطاع الوصول إلى معرفة جزئية غير مكتملة، لا يستطيع أي شخص بلوغها ببساطة، وهو يرى أنها معرفة فعلية على نقصانها.

يحاول جريجوري بصفته أسقفًا مكلفًا بمسؤوليات التعليم والاحتفال الليتورجي والخدمة الرعوية في زمن جدل عقائدي كبير أن يقود المؤمنين إلى معرفة الله، التي دعا الجميع إليها. من خلال تصوير نفسه في دور موسى، يؤسس جريجوري الشرط الرعوي التقليدي لسلطته كمعلم ملهم وحسن الاطلاع، وبالتالي مصداقية العقيدة التي يخطط لتقديمها. النقطة الأساسية في هذا المقطع واضحة: يجب تطهير المرء من أجل معرفة الله. بعد إقراره بعدم يقينه في مواجهة مثل هذا الاحتمال، يسرد جريجوري كل شخصية من الشخصيات في قصة الخروج مثال على الطريقة التي تتوافق بها معرفة المرء مع درجة تطهير الفرد. بينما يُطلب من الجميع الاقتراب من الله؛ فإن كل شخصية قادرة على الصعود فقط بقدر ما تسمح به تنقيتها، بما في ذلك أولئك الذين تم تنقيتهم بالكاد. ومع ذلك، فإن أولئك الذين هم نجسون تمامًا ولا يستحقون هذا المستوى من المعرفة الإلهية يجب أن يبتعدوا عن الجبل بسبب الخطر الذي يشكله عليهم.(٧٨) في هذا الموقف الرعوي المعقد، يوضح جريجوري الإمكانيات المختلفة لـ "التأمل واللاهوت" في مخطط يتوافق مع درجة تطهير الفرد. وهكذا تكون معرفة الله مثل ألواح موسى الحجرية المنقوشة على كلا الجانبين، والجزء الخارجي مرئي للجمهور أدناه، والجزء الداخلي المخفي مرئي فقط لأولئك الذين يصعدون جبل التأمل من خلال التطهير. حيث تلخص دعوة جريجوري الدرامية للتطهير في الخطبة ٢٨ الموضوع الرئيسي للخطبة اللاهوتية الأولى. بعد ملاحظات تمهيدية موجزة ضد أفنوميس Eunomians، وصل مباشرة إلى النقطة في مقطع مشهور: إنه ليس للجميع – أي الناس – القدرة على إستيعاب الحكمة الإلهية. إنه ليس شيئًا يمكن شراؤه بسعر رخيص أو لمن يزحف على الأرض. علاوة على ذلك، فهي ليست مناسبة لكل مناسبة أو كل جمهور أو كل موضوع، ولكن هناك وقت مناسب وجمهور وموضوع. إنه ليس للجميع، لأنه لأولئك الذين تم اختبارهم ووجدوا أساسًا أكيدًا في التأمل – والأهم من ذلك، أولئك الذين تم تطهيرهم بالروح والجسد، أو على الأقل يتم تطهيرهم. فمن الخطر على غير الطاهر أن يتمسك بما هو طاهر، كما هو الحال بالنسبة للعيون الضعيفة أن تنظر في سطوع الشمس.(٧٩)

78 - Christopher A. Beeley: Op. Cit, p 66.
79 - Christopher A. Beeley: Op. Cit, p.p 66, 67.

وبعد أن وضع جريجوري الأسس اللازمة لتطهير اللاهوتي عندما عرض ماذا يجب أن يكون للاهوتي من صفات، وأمام من يجب أن يناقش، وفي أي وقت، وإلى أي حد وأمام أناس يكونون من الطهارة بحيث يلتقط النور النور؛ أمام من يكونون أشد الناس إصغاء كي لا تكون الكلمة عقيمة بسقوطها في أرض قفر جدباء؛ وفي الوقت الذي نكون فيه هادئي الداخل وبعيدين عن دوامة الخارج بحيث لا ينقطع نفسنا ونكون كالمسعورين؛ وإلى الحد الذي نكون عنده قد فهمنا وأفهمنا. وإذا كان الأمر كذلك، وكنا قد حرثنا حرثاً إلهياً فينا، بحيث لا يكون "الزرع بين الشوك"، وسوينا وجه الأرض"، وبالكتاب المقدس أهّلنا أنفسنا والآخرين، فهيا بنا في الحال إلى الكلام على اللاهوت، راجين أن تأتينا من الألوهة الواحدة إنارة وحيدة، متميزة في الوحدة، ووحيدة في التميز.[٨٠]

ففي حين أن جميع الناس مدعوون لمعرفة الله، فإن جريجوري يدرك أنه في الممارسة الفعلية لا يمكن الحصول على هذه المعرفة إلا بشروط معينة مصاحبة لذلك. حيث يشير السياق الأوسع للنص إلى أن "الحديث عن الحكمة الإلهية " يشير إلى كل من التلقي عن الرب وإستقبال النعمة الربانية والتعليم العام للعقيدة المسيحية؛ بالنسبة له، فإن المتطلبات لكليهما هي نفسها بشكل أساسي. وبالتالي فإن معرفة الرب ليست شيئًا يمكن اكتسابه أو تعليمه بشكل مستقل عن الحالة الأخلاقية والروحية للفرد. إن هذه الدروب تخص فقط أولئك الذين اجتهدوا في عمليتي التخلية والتحلية –أي التخلية عن كل ما لا يُرضي المسيح والتحلي بما جاء في ماموسِه وتعاليمه– التي يسميها التطهير.[٨١]

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال مهم، هو، هل الطهارة الأخلاقية كافية لرفع الإنسان إلى مستوى معرفة الله الحقيقية؟، بالطبع لا، ومع ذلك فهي خطوة ضرورية أولية لاكتساب هذه المعرفة وهي تحدد مدى تقبلها. لذلك تظهر علاقة العارف بالله على أنها علاقة تبادلية بين مدى التطهير ودرجة المعرفة التي يمكن اكتسابها عن الله. ويتضح ذلك من خلال تأكيد النزينزي على أن الله يُرى ويُعرف بما يتناسب مع التطهّر. فالتفلسف عن الله ليس من السهل تحقيقه لأى كان بل هو مهمة شاقة وصعبة تفترض تطهيرًا بدرجة عالية تجمع بين تطهير الروح والجسد معًا. وفي هذا تأكيد واضح على أن معرفة الله لا ينالها سوى من بلغ درجة معينة من التطهير. ولذلك فإن مطلب التطهير عنصر أساسي في عقيدته ويظهر في جميع أنحاء عمله. ففي أول ملخص عقائدي له في القسطنطينية، أوضح تلك النقطة

---

٨٠ - القديس جريجوري النزينزي: الخطاب ٢٨ الخطاب اللاهوتي الثاني "في اللاهوت"، فقرة ١، ص ٣٨.

81 - Christopher A. Beeley: Op. Cit, p 68.

بإيجاز، مستعيرًا عبارة منسوبة لأفلاطون: "على المرء أولاً أن يطهر نفسه، ثم يقترب من الطاهر". بالنسبة لجريجوري، "التطهير" (وما يقابلها) يعني أولاً وقبل كل شيء تغييرًا جذريًا في شخصية الفرد وطريقة حياته. [٨٢] وبناءً على ذلك يصبح التطهير عملية تغيير سلوك الفرد في الحياة، والتطبيق العملي للفرد، وهو الأساس والسياق الضروريان للمعرفة العميقة بالله التي يسميها جريجوري "التأمل". وهكذا تمثل التنقية الجزء الأول من عملية التغيير المكونة من جزأين والتي تؤدي إلى الاستنارة. كما توحي الكلمة حرفياً، فإن التطهير هو إزالة العناصر النجسة – خطية المرء وأرواح العالم النجسة – التي تلوث حياة المرء وتمنعه من معرفة الله.[٨٣]

يجب على المرء أولاً أن يطرد الروح الدنيوية النجسة من النفس، وتتزين الروح بدلاً من ذلك بالفضيلة التي يحُل بها المسيح داخل الفرد، من أجل معرفة الله حقًا. يوضح جريجوري في الخطبة ٢٠ هذه العملية المزدوجة بتفسير روحي لقصة زكا الواردة في إنجيل لوقا الإصحاح التاسع عشر. مثلما تسلق زكا شجرة الجميز ليرى يسوع، علينا نحن أيضًا أن نقتل ما هو أرضي فينا، ونهدر "جسد تواضعنا"، حتى نقبل المسيح ونسمع منه يقول: "اليوم الخلاص قد أتى إلى هذا البيت". وبذلك تساعد الضوابط العملية للتطهير المسيحي على تطهير الجسد والروح. وهناك عناصر محددة يتكون منها عمل التطهير. وبالمعنى العام، يتم تطهير المسيحيين من خلال يقظة الله في التأمل المستمر، والصلاة، والشهادة، والتسبيح، ومن خلال `` قلب منسحق ". كما يوصي جريجوري أيضًا بممارسة مجموعة كاملة من الممارسات للمساعدة في التطهير، وأعمال التقوى والتدريب الروحي، أو التقوى، المستمدة من المصادر التوراتية والفلسفية، والتي أصبحت موحدة نسبيًا من خلال تأثير (أوريجن) والحركة الرهبانية الناشئة. حيث ذكر أنه بمجرد التخلي عن العناصر الأجنبية للدين الوثني، يجب على المرء أن "يصقل الجمال اللاهوتي بداخله، مثل التمثال". يجب على المرء أن يزيل شوائب الخطيئة من خلال ممارسات مثل الضيافة، والحب الأخوي، والمودة الزوجية، العفة، وإطعام الفقراء، وترنيم المزامير، والسهر الليلي، والتوبة، والصوم، والصلاة، والتأمل في الموت، والسيطرة على الأهواء.[٨٤] إذن وبعد كل تلك الممارسات يصبح المرء مؤهلاً لتقبل نعمة المعرفة الإلهية، التي لن يستطيع بلوغها إلا إذا عمل على تطهير الجسد والروح معًا. وهذا بالطبع ينقلنا إلى الحديث عن الاستنارة العرفانية التي ينالها اللاهوتي المتفلسف عن الله والطاهر في آن معاً.

82 - Christopher A. Beeley: Op. Cit p 68.
83 - Ibid: Op. Cit, p 68.
84 - Christopher A. Beeley: Op. Cit, p 71.

ج- الاستنارة: معرفة الرب المطلق.

إنه لمن الضروري التنبيه على أن الله يصير معروفًا للإنسان حسب الدرجة التي وصل إليها المرء في تطهيره، والتي بناءً عليها يعرفه الله بها. وتمثل الاستنارة الإلهية التي يحصل عليها اللاهوتي، المرحلة الثانية من مراحل التحول الداخلي للعقيدة المسيحية في مذهب جريجوري.

ومن أجل معالجة نموذجية لمفهوم الاستنارة، نعود مرة أخرى إلى صعود جريجوري إلى جبل سيناء في الخطبة اللاهوتية الثانية. فبعد إثبات شرط التطهير في النصف الأول من المقطع، ينتقل في النصف الثاني، وفي ما تبقى من الخطبة ٢٨ إلى معرفة الله في حد ذاته.(٨٥) فيقول: ماذا جرى لي، أيها الأصدقاء، الواقفون على الحقيقة والمكلفون بها بمقدار ما أنا مكلف بها؟ لقد أسرعت لبلوغ الله، وصعدت هكذا إلى الجبل، ودخلت في مقام المحو أو الفناء الصوفي، منعزلاً في داخلي عن المادة والماديات، ومنكفئاً على ذاتي قدر المستطاع. **هذا هو الجانب الأول المتعلق بالتطهير المعتمد على التخلص من الماديات. ثم ينتقل جريجوري إلى المرحلة الأخرى وهي التي ينالها الطاهر حيث يقول:**" وعندما نظرت لم أكد أرى سوى جلال الرب، وكنت محتمياً بالصخرة، وبالكلمة، والذي صار جسداً من أجلنا، وعندما انحنيت قليلاً أبصرت، لا الطبيعة الأولى الخالصة من كل اختلاط، التي تدرك ذاتها، أعني الثالوث، وكل ما يبقى وراء الستر الأول، بل ما يقع في الطرف ويصل إلينا. إنه، على ما أرى، عظمة الله في المخلوقات وفي الأشياء التي أبدعها وساسها، وما يسميه داود الإلهي "جلاله"، هذا ما يُرى في جلال الرب وبهاءُه، وما يدرك بعد اجتيازه، إنه كظلال الشمس على المياه، والأخيلة تمثل الشمس في العيون الضعيفة، إذ لا يمكن التحديق إلى ذات الشمس، لأن صفاء نورها يتغلب على الحواس. هكذا يجب أن تؤهل نفسك للوقوف في الحضرة الربانية، وإن كنت موسى، و"إلهًا لفرعون"، وإن كنت بلغت "السماء الثالثة" مثل بولس، وسمعت "كلمات تفوق الوصف"، وإن تفوقت عليه، في أحد المواقع أو الصفوف التي لرؤساء الملائكة. فكل كائن، سواء كان علوياً أو فوق العلوي، وإن كان بطبيعته أرفع منا جداً أقرب إلى الرب وأن كان الأبعد عن إدراك حقيقته، نحن الخليط المركب السفلي والميال إلى الأرض.(٨٦)

بعد أن جعل الصعود المطهر إلى أعلى الجبل، والتركيز بشكل كامل قدر الإمكان على الله وحده، يخبرنا جريجوري بما يراه ويصف طبيعة معرفة الله. هذا المقطع المختصر والمعقد في الوقت نفسه

---

85 - Ibid: p. 90.

٨٦ – القديس جريجوري النزينزي: مصدر سابق، فقرة ٣، ص ٤٢.

يعد التصريح الأبرز له عن طبيعة الرؤية اللاهوتية.[٨٧] وهو يصعد صعوده إلى جبل سيناء على وجه التحديد ليتأكد من وجود الرب على الحقيقة. يبدأ المقطع بصعود جريجوري إلى الجبل على أمل صادق بلقاء الله، وفي القسم التالي يوضح هدفه: "كنت أركض لأفهم الرب"ليس فقط لمعرفته ، ولكن لكي تعرفه تمامًا، كما يدعي أونوميوس. في الجملة الأخيرة، كرر النقطة في هذا الموضوع بأكمله: بغض النظر عن مدى تعظيم المرء للآخرين، سيظل المرء بعيدًا بشكل لا نهائي عن "معرفة ماهية الرب". فالموضوع الرئيس للمقطع هو مسألة قابلية وعينا للمُخلص. في هذا الصدد، فإن قصة جريجوري الحاسمة للرؤية اللاهوتية هي بمعنى ما قصة فشل: فهو لا يعي ماهية الرب كما كان يأمل، ولكنه بالكاد يتمكن من رؤية "تجلياته وإشاراته وعلاماته وأثره". وجوهر الحوار الذي تحدث عنه موسى في المقطع هو إثبات عدم إدراك ماهية الرب، لإظهار أنه لا يمكن معرفة الرب بالكامل، –كما يؤكد أونوميوس–.[٨٨] وتظل الحجة الرئيسة للخطابة، التي يعود إليها باستمرار، هي أن "الإله لا يمكن أن يدركه الفهم البشري، ولا يمكن حتى تخيل عظمته". في عبارات مثل هذه، يستخدم جريجوري مجموعة متنوعة من الأشكال، التي أصبحت شائعة من خلال نظرية المعرفة الرواقية، للتعبير عن فكرة استيعاب شيء ما أو إتقانه أو "استدراجه"، وبالتالي فإن الفهم هو مسألة فهم كامل وشامل. حجته الأساسية هي أنه، بسبب عظمة الله وحجمه اللامتناهي لا يمكن أن يعرفه أو يتقنه أي كائن مخلوق بالكامل.[٨٩] ولذلك يستطرد شارحًا وموضحًا ذلك بقوله:" الرب ، في طبيعته وفي جوهره ، لم يتوصل أحد قط ولن يتوصل أحد إلى اكتشافه؛ كلا لن يتم هذا الاكتشاف إلا عندما يصبح العنصر الإلهي الذي فينا، أعني روحنا وعقلنا، على صورة الله، عندما يصب غارقًا في من ينتمي إليه، عندما ترتقي الصورة إلى من أخذت عنه ومن تصبو إليه . وإنه ليبدو لي في ما يبدو أن الفلسفة كل الفلسفة في أننا سنعرف يوما بقدر ما نحن معروفون. وكل ما يصلنا الآن إنما هو شعاع ضئيل، أو شبه قبس نزر من نور عظيم. وهكذا فإن كان أحد قد عرف المسيح أو عُد عارفا للرب فليست معرفته سوى أنه تعرض للنور أكثر من غيره. وهذا القسط الذي حصل عليه من المعرفة عُد كاملا، لا في الحقيقة، بل بالنسبة إلى إمكانية جاره الذي لم يصب من النور ما أصاب هو.[٩٠] وهنا تلعب الاستنارة دورًا فاعلاً في إتمام عملية المعرفة؛ لأنها تتمم الجزء الناقص الذي لن يستطيع العقل وحده إدراكه. لأن المحدود لا يمكن أن يدرك اللامحدود حسب جريجوري.

87 - Christopher A. Beeley: Op. Cit, p. 91.
88 - Christopher A. Beeley: Op. Cit, p. 93.
89 - Ibid: p. 94.

٩٠ - القديس جريجوري النزينزي: مصدر سابق، فقرة ١٧، ص ٥٨.

وهنا يجب التأكيد على أن القديس جريجوري، إن كان قد أقر بما لا يدع مجالاً للشك أن معرفة الرب – بشكل كامل– غير ممكنه ومن الصعب تحقيقها، لكنه أكد في الوقت نفسه علي قدرة العقل وأهميته، فرغم عدم القدرة علي إدراك الرب بصورة نهائية، إلا أن المعرفة الجزئية الناقصة والغامضة في الآن نفسه، التي ينالها اللاهوتي، لن تتم ما لم تستعن بقدرات العقل التأملية. وهنا يجدر القول أن تلك المعرفة التي نحصل عليها والتي لن تكون بإدراك الرب نفسه، بل عن طريق التفكير في الأشياء الدالة على وجوده وكماله. ويتحقق ذلك من خلال النظر في الموجودات ودقة ونظام الكون وجماله. حيث يقول في هذا الشأن:" وهكذا يصعب في كل حقيقة وفي كل خطاب أن يقع الإنسان على براهين، وأن يبلغ المشاهدة. إننا كمن يريد أن يقوم بعمل كبير بوسيلة صغيرة، عندما نعمل على اقتناص معرفة الحقيقة بالحكمة البشرية، وعندما نواجه المعقولات بالحواس أو بغير أن نتغاضى عن الحواس التي تطوح بنا وتضللنا، **وفي هذا إشارة واضحة إلى نظرية المعرف**ة الغنوصية الروحية الصوفية التي لا تثق بعالم المحسوسات وتصفه بصفة الخداع والتضليل. ثم يقول جريجوري: وإنه ليتعذر علينا ، فنحن نقابل الأشياء المجردة بعقولنا، مع تسليمنا بعدم إمكانية رؤيتنا لها بحواسنا، ونسمي تلك المجردات المعقولة بالمعقولات. أما النقاش في موضوع الله فبقدر ما يكون أوسع وأعمق يكون أصعب وأغلق، ويكون مجالا لاعتراضات كثيرة، ولردود معقدة عسيرة. فكل عائق وإن كان هزيلا وضئيلاً يوقف مسيرة النقاش ويشله ويحول دون انطلاقه كما يفعل الشد المفاجئ لأعنّة الخيل المندفعة، عندما ترتد وتستدير في عنف الصدمة المفاجئة.[٩١]

وهنا يؤدي العقل دوره من خلال عملية التأمل في الذات وفي مجمل الطبيعة البشرية ومقوماتها، فينظر إلى التركيب الإنساني المصور ، والنفس وعلاقتها بالجسد، وكيف يعمل العقل ذاته؟ وكيف خُلق الإنسان في صورته وهيئته البشرية؟ هذا هو دور العقل الذي من خلال تفعيل دوره المتمثل في التفكير والنظر والتأمل يقودنا إلى الاستدلال على الخالق المنظم القادر الحكيم، الذي يتجلى إبداعه في خلق الإنسان وتكوينه. وكل ما يقوم به وعليه هذا العالم المُصغّر الذي هو الإنسان. ثم ينتقل جريجوري إلى النظر والتأمل في الكائنات الحية والطبيعة، ويُظهر الفارق بين الإنسان والكائنات الأخرى، وطبيعة تلك الكائنات ونظام حياتها، وكل ما يتعلق بها؟ بل يمتد كلامه حتى إلى الحث على النظر في أشكال النباتات وتنوعها، وحتى الأنهار والجبال والأرض وما فيها وعليها، والسماء والكواكب والأفلاك وغير ذلك.

[٩١] - نفس المصدر، فقرة ٢١، ص ٦٢.

ثم يتساءل ما علة هذا النظام وهذه الحركة؟ هذا ما يقودنا عقلنا إليه أنه من صنع الإرادة الإلهية العظيمة. فكل ما في الكون يدل علي وجود خالق عاقل، فياض الحكمة.[٩٢] فالرب لا يمكن إدراكه ببساطة ولكن يمكننا أن نستدل عليه فيما حوله أي في مخلوقاته وأفعاله. هنا يتجلى دور العقل. فبإعماله يرقى الإنسان وبالاستدلال يُدرك مدى عظمة الخالق، حيث يستدل الإنسان على وجود الإله من خلال النظر في المعطيات المذكورة أعلاه. ولكن يجب أن نعلم أن دور العقل ينحصر هنا فحسب، ثم يأتي دور الإيمان ليكمل ما بدأه العقل، حيث يقول:" وهكذا فعندما نُقدم سلطان التحليل العقلي ونُهمل الإيمان، عندما نُبطل سلطان الروح بتحرياتنا ويكون التحليل العقلي دون عظمة الموضوع – وسيكون كذلك على كل حال؛ لأنه ثمرة أداة ضعيفة هي عقلنا البشري– فماذا يجرى والحالة هذه؟ إن الاستدلال يبدو كالسر ضعيفًا".[٩٣] ويجدر القول أن تلك النظرة لم يتجاوزها أي من فلاسفة ومفكري العصر الوسيط المسيحي على امتداده، إلا بالنذر القليل. فإن كان للعقل أهمية ودور حقيقي، فهو لا يكتمل دون الاستعانة بالإيمان لينير له طريق الحق. ومعرفة الرب تحدث وتتم نتيجة تجلى الإله بنعمته على قلوب الأنقياء، كل حسب درجة تنقيته وطهارته، كما ذكرنا سلفاً. هذه خلاصة أفكار القديس جريجوري النزينزي عن معرفة الله وكيفية حدوثها.

ولا ريب في أن السطور السالفة التي عبرت عن المسحة الإيمانية في فلسفة جريجوري وتؤكد تأثره بحديث الفرق الغنوصية والهرمسية وكذا النصوص التوراتية والزهاد الأوائل المنقطعين للعبادة والمؤكدين ما أكده سائر الصوفية في كل الديانات على أن طريق الأستنارة الكاملة هو المعرفة القلبية الحدسية الروحية التي تبدأ بالمجاهدة وتطهير النفس من متعلقات البدن وأهوائه وشهواته ثم الإرتقاء إلى تحلية الملكات القدسية للتواصل مع الحضرة الإلهية حتى الوصول إلى مقام المحو والفناء. وبذلك يصبح جريجوري من اوائل المتفلسفة المسيحيين في ميدان الزهد والتصوف.

[٩٢] - القديس جريجوري النزينزي: مصدر سابق، صفحات متفرقة ، ص ٦٢ – ص ٧٨.

[٩٣] - القديس جريجوري النزينزي: الخطاب ٢٩ الخطاب اللاهوتي الثالث "في الابن الكلمة (١)"، فقرة ٢١، ص ١٠٤.

خاتمة:

توصل الباحث مما سبق إلى مجموعة من النتائج يوجز أهمها في الآتي:

١. هناك إطار عام لم تنفك فلسفة العصور الوسطى إجمالاً تدور في فلكه – حتى جريجوري النزينزي نفسه– لم يخرج عن ذلك الإطار، وهو الاستعانة بالموروث الفلسفي اليوناني (الهليني، والهلينستي، والمزيج الفلسفي المتأخرفي مدرسة روما)، ولكن مع التحفظ على بعض الأفكار الواردة فيه. وقد تجلى ذلك بصورة واضحة في استعانته بالأفكار الأفلاطونية والرواقية والكلبية والأفلوطينية المحدثة وغيرها. فهو يؤيد ما قاله سابقوه من فلاسفة مدرسة الإسكندرية مثل كليمنت وأوريجن وغيرهم. مع مراعاة أن جريجوري فعل ذلك من منظور مسيحي. ورغم ذلك أننا لا يمكن وصفه بأنه مجرد فيلسوف مقلد بل أنه مؤلف ومبدع في صياغة فلسفته الإيمانية في ثوب أو طلاء عقلي.

٢. هناك نطاق عام تتحدد من خلاله أسس منهج جريجوري النزينزي، يتمثل في تلك العلاقة التجاذبية بين مقدار التطهير ودرجة الاستنارة التي يحصل عليها الفرد. فمن أراد معرفة حقيقة الرب، عليه أن يتحرك نحوها نظرًا وممارسة. أي من خلال إعمال العقل مع ممارسة التطهير والتنقية، اللتين تقودان اللاهوتي نحو معرفة عميقة وحكيمة وحقيقية عن المسيح.

٣. لم يكن جريجوري من مناهضي العقل، بل أقر بأهمية المعرفة العقلية التأملية، ولكنه أقر في الوقت نفسه بمحدودية العقل، وأن الاعتماد عليه كليًا عين الجهل. فإن حصلنا على معرفة بالاستعانة بالعقل ستظل جزئية ومحدودة. وهنا يأتي دور الإيمان ليكمل ما عجز العقل عن إدراكه، من خلال ممارسات صوفية عدة، مثل الصوم والصلاة الدائمة وتنقية النفس والقلب والتغلب على الشهوات والملذات وترك الماديات وغيرها وهنا يكمن الدور الحقيقي للإيمان.

٤. نتيجة لذلك أقر جريجوري بما لا يدع مجالاً للشك أن معرفة الرب لا تحدث نتيجة البحث العقلي أو التأمل الفكري فحسب بل هي ثمرة التجديد الروحي الإيماني الدائم مع الرب.

٥. قدم جريجوري فكره بصورة شمولية للاهوت والفلسفة والبلاغة المسيحيين، وذلك عكس المعتقد القديم الراسخ لدى بعض اللاهوتيين من وجود تعارض بين الفلسفة واللاهوت، وذلك حين عرض أفكاره بصورة بلاغية اصطبغت بصبغة فلسفية كان النصيب الوافر منها متعلق بالفلسفة الأفلاطونية. وما يبرهن على صحة ذلك ما نجده من تأثر النزينزي الواضح بآراء الفلاسفة وذكره للمفاهيم التي استخدمها الفلاسفة في خطبه اللاهوتية، مثل الصانع والجوهر الأول والعلة الأولى ومعنى العالم المنظور والعالم المعقول وغير ذلك.

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا:

أ-المصادر العربية والمترجمة إليها:

مختارات من القديس جريجوري اللاهوتي النزينزي: ١- تعريب الأسقف استفانوس حداد، الخطاب الأول ضد يوليانوس، منشورات النور، بيروت ١٩٩٤م.

ميامر القديس إجريجوري الناطق بالإلهيات: ٢- إعداد راهب من دير المحرق، تقديم الأنبا ساويرس، الجزء الأول، مخطوطات دير المحرق، القاهرة، د. ت.

النزينزي (القديس جريجوري): ٣- الخطب اللاهوتية ٢٧- ٣١، نقلها عن اليونانية إلى العربية الأب حنا الفاخوري، ط١، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ١٩٧٣م.

ـــــــــــــــــــ: ٤- رسائل لاهوتية وفصلان من مسرحية المسيح المتألم، تعريب حنا الفاخوري، ط١، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ٢٠٠٠م.

ب-المصادر الأجنبية

Gregory of Nazianzus Five Theological Orations: 1- Translated by Stephen Reynolds, Estate of Stephen Reynolds, United Kingdom, 2011.

Select Orations of Saint Gregory Nazianzen Sometime Archbishop of Constantinople: 2- Translated by Charles Gordon Browne, M.A., James Edward Swallow, M.A., Christian Literature Publishing Co., New York, 1893.

ثانيًا: المراجع:

أ-العربية:

بسترس (كيرلس سليم وآخرون): ١- تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، ط١، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ٢٠٠١م.

المقاري (باسيليوس): ٢- دراسات في آباء الكنيسة، مطبعة دير القديس أنبا مقار، القاهرة، (د.ت).

ب-المراجع الأجنبية:

Andrew Hofer, O.P: 1- Christ in the Life and Teaching of Gregory of Nazianzus, Oup Oxford , U.S.A, 2013.

Brian E. Daley, S.J: 2- Gregory of Nazianzus The Early Church Fathers, First published, Routledge, New York, 2006.

Christiane Zimmermann: 3- Faith and Verse: Gregory of Nazianzus and Early Christian Village Poetry, in: Early Christianity in Asia Minor and Cyprus: From the Margins to the Mainstream, Stephen Mitchell, Philipp Pilhofer, Brill, Netherlands, 2019.

Christopher A. Beeley: 4- Gregory of Nazianzus on the Trinity and the knowledge of God: in your light we shall see light, Oxford University Press, New York, 2008.

Claudio Moreschini: 5- Gregory Nazianzen and Philosophy، with Remarks on Gregory's Cynicism,(IN), Re-reading Gregory of Nazianzus : essays on history, theology, and culture, edited by. Christopher A. Beeley: Catholic University of America Press, U. S. A, 2012.

Coriden, James A.: 6- The Holy Spirit and an Evolving Church, Orbis Books, U.S.A, 2018.

Frank Northen Magill: 7- Dictionary of World Biography, volume 1, "the ancient world", Taylor & Francis, U.S.A, 2003.

George A. Kennedy: 8- Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times, University of North Carolina Press, U.S.A, 2003.

George E. Demacopoulos: 9- Five Models of Spiritual Direction in the Early Church, University of Notre Dame Press, U.S.A, 2006.

James Francis LePree Ph.D., Ljudmila Djukic: 10- The Byzantine Empire: A Historical Encyclopedia, volumes 1, Abc-Clio, U.S.A, 2019.

Jennifer Barry: 11- Bishops in Flight: Exile and Displacement in Late Antiquity, University of California Press, U.S.A, 2019.

John A. McGuckin: 12- St. Gregory of Nazianzus: an intellectual biography, St Vladimir Seminary Press, New York, 2001.

John Behr: 13- The Nicene Faith: Formation Of Christian Theology, Volume 2, St Vladimir's Seminary Press, New York, 2004.

John F. Nash: Christianity: 14- the One, the Many: What Christianity Might Have Been and Could Still Become Volume 1, Xlibris Corporation, , U.S.A, 2007.

Jostein Børtnes, Tomas Hägg: 15- Gregory of Nazianzus Images and Reflections, Museum Tusculanum Press, Denmark, 2006.

Kilian McDonnell: 16- The Other Hand of God: The Holy Spirit as the Universal Touch and Goal, Liturgical Press, U.S.A, 2003.

Michelle Ballif ،Michael G. Moran: 17- Classical Rhetoric's and Rhetoricians: Critical Studies and Sources, first published, Greenwood Publishing Group, U.S.A, 2005.

Norman Russell: 18- The Doctrine of Deification in the Greek Patristic Tradition, Oxford university press, U.S.A, 2005.

Trevor Curnow: 19- Ancient Philosophy and Everyday Life, first published, Cambridge Scholars Publishing, London 2006.

ثالثًا: الدوريات والمقالات العلمية:

مركز الأبحاث بمجلة مدرسة الإسكندرية: كتاب اللاهوتي ومعرفة الله في فكر القديس جريجوري اللاهوتي، ط١، ع ٥، ٦، مطبعة الدلتا، الإسكندرية، اكتوبر ٢٠١١م.

رابعًا: الموسوعات والمعاجم:

George Thomas Kurian, Mark A. Lamport: Encyclopedia of Christian Education, Rowman & Littlefield, New York, 2015.